كيف تواجهين
مصاعب الحياة ؟

صلاح فتحي هلَل

دار الروضة
للنشر والتوزيع

دار الــروضـــة

للنشــــر والتــوزيــع

القاهرة : ص . ب ٢٢٢٧ رمز بريدي ١١٥١١

ميدان الأوبرا سور الأزبكية ت / ٥٩١٣٤٢٠٤

فرع الأزهـــــــر

مركز توزيع الكتاب الإسلامى

٢ درب الأتراك خلف جامع الأزهر ت / ٥١٢٣٦١١

نافذتك علي الفكر الإسلامي بما تقدمه لك
من روائع الكتب التي تجمع بين الأصالة
والمعاصرة في مختلف المجالات

يديرها ويشرف عليها

سـامـى الطـرابيشـى

حقوق الطبع محفوظة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى الصدر الدافيء الذي تذوب بين أحضانه هموم الأسرة وآلامها .

إلى العقل الذي يحمي الزوج من السقوط في دائرة الدَّيْنِ ، وهمّ الفَاقَة .

إلى صاحبة الابتسامة الرقيقة ، التي تحافظ على شباب بيتها ، وتطرد عنه الشَّيْب .

إلى نَبْع الحنان ، وشريان الأمان ، وريحانة البستان .

إلى نصف الأمة ، ومنبع نصفها الآخر.

إلى المرأة الصالحة ، الصابرة ، العابدة ؛ القائمة بما عليها من واجبات تجاه دينها وبيتها وزوجها.

إليك ياصانعة المجد، وعنوان العزّ والشرف، ورمز العُلُوّ ، وصاحبة التاريخ : يأتي هذا الكتاب المتواضع .

راجيًا الله عز وجل أن ينفع به ، وأنْ ينزل منك منزل القَبُول ، وأن يلهمنا جميعًا سبيلَ الرشاد

صَلاَح هَلَل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، الفرد الصمد، الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ، ليس كمثلِهِ شيءٌ وهو السميع البصير .

له الحمد سبحانه حتى يرضى ، وله الحمد بعد الرضى، حمداً كثيراً طيباً مباركًا فيه ، ملء السماء والأرض ، وملء ما شاء ربنا من شيءٍ بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحقّ ما قال العبد، وكلُّنا له عبد.

والصلاة والسلام على الهادي البشير ، والسراج المنير ، محمد بن عبدالله ، صلى الله عليه وسلم.

وارض اللهمّ عن آل بيتِ نبينا ، وصحابته الأطهار ، واجمعنا معهم جميعًا في جناتِ عدنٍ ، برحمتك وعفوك يا أكرم الأكرمين.

وبعد : ...

فهذه رسالة موجهة إلى المرأة المسلمة ، تنتظم الحديث عن حالها مع زوجها الفقير أصلاً ، أو الذي اعتراه الفقر بعد الغنى .

وتحمل في أثنائها كل فخرٍ واعتزاز بتلك المسلمة الصابرة مع زوجها، الضاربة بسهمٍ وافرٍ في شتّى مناحي الحياة الإسلامية ، مع التزامها بالتكاليف الشرعية المفروضة عليها ؛ من عبادات وحجاب وعفاف ، وغير ذلك .

كما تحمل الرسالة التحذير والإرشاد لتلك المسلمة التي انخدعت ببريق الشعارات المغرضة ، فتخلَّتْ عن موقعها ، ولم تمانع أن تصبح حجراً من

«أحجار الشطرنج » في يد أعداء الملّة ، وأرباب الإلحاد ، الذين يَسْتَخْفُونَ خلف الشعارات الكاذبة على وتيرة: « أصدقاء المرأة » ؛ فأصبحت تلك المرأة المخدوعة عقبةً أخرى في مسلسل « العوائق » أمام الدعوة إلى الله عز وجل ، وربما كانت سببًا في تفكُّك أسرتها ، وانهيار بنيانها العظيم ، حتى إذا طال بها العمر ، ولعبت بها الأهواء ، ومجَّها « أصدقاء المرأة » لم تجد سوى الندم ورثاء الأطلال ، فتعلم المسكينة حينئذٍ حجم الخسارة التي نالتها ، وأثر الجناية التي اقترفتها ، حين أصْغَتْ[1] بسمعها للمارقين ، وأذنت لهم بصناعتها !!

لقد كانت المرأة في صدر الإسلام قانتة ، عابدة ، مطيعة لله عز وجل ، حريصة على الوفاء بما عليها من واجبات تجاه دينها وزوجها ، ولم تترك المرأة هذا الموقع السامي ، وتلك الريادة العالية في عصور الإسلام الزاهية .

وفي حالٍ من مداهمة العجم لبلاد المسلمين؛ أصغت بعض النساء بسمعها لهؤلاء العلوج[2] ، تاركةً نفسها لهم يصنعونها على طريقتهم ؛ وقد كان !.

لقد تغيَّر ميزان الأمر عند كثيرٍ من النساء اللآتي انخدعن ببريق الشعارات الكاذبة للإعلام المغرض ، وهذا واضحٌ ظاهر للعيان .

وهكذا تراجعت المرأة شيئًا فشيئًا ، وسقطت رويدًا رويدًا ، فتعطَّلَتْ «مصانع الأبطال» ، وتوقَّفَتْ صناعتها للحياة .

ومهما يكن من أمرٍ فلا زال هناك الكثير ممَّن تَعَالى على الكفر ، ورفض الانخداع بشبهاته وشهواته ، ولم يستطع الكفر أن يحوزه في صفِّه ، وبقي شامخًا قويًّا ، عزيزًا بإسلامه ، داعيًا إليه ، صانعًا للحياة ، ضاربًا بالكفر وألوانه وأساليبه عُرض الحائط، هازئًا بكلِّ تهديدٍ ووعيد ، صابرًا على كلِّ بلاءٍ وَفَاقَة.

---

(١) أي: مالَتْ.

(٢) العِلْجُ: الواحد مِن كُفَّارِ العَجَمِ.

وفي حالٍ من الصراع بين الحقِّ والباطل ، والتضييق على أهل الإسلام وبلدانهم ، ومحاربتهم في أرزاقهم : أَلْهَب الفقر ظهور كثيرٍ من البلاد الإسلامية ، وأضنى كثيراً من المسلمين ؛ وتأتي هذه الرسالة مواساة لهؤلاء الفقراء ، تدعوهم إلى الصبر والثبات حتى يلقى الناس ربهم؛ فيجازيهم بأعمالهم .

وخُصَّت المرأة بالذِّكْر والمواساةِ ؛ لضعفها ؛ كونها ربَّة البيت وراعيته التي يَتَتَرَّس بها الزوج ، فتدفع عنه بحنكتها وحكمتها بلاء الدَّيْنِ ، وتحملُ عنه بصبرها همَّ المَسْألةِ وعارها ؛ وربما كانت من ذوي الأملاك فمدَّتْ يدها إليه .

وأرجو الله عز وجل أن تأتي الرسالة كما أردتُ لها ، وأن يلهمني الله عز وجل فيها السّداد والرشاد ، وأستغفر الله عز وجل من كلِّ زللٍ وشططٍ لم أتعمَّده .

وفَّق الله الجميع لما يحبه ويرضاه .

وصلِّ اللهم وسلِّم وبارِك على عبدك ونبيك محمدٍ ﷺ .

وارض اللهمَّ عن الآل والصَّحْب والتابعين .

والحمد للَّه رب العالمين .

قاهرةُ المعزِّ
في سادس أيام رمضان المبارك
ليلة السابع منه لعام / ١٤٢٠
الموافق ديسمبر ١٩٩٩ من الميلاد

وكتبه
صَلاح بْنُ فَتْحي هَلَل
أَبُو خُبَيْبٍ
سَامَحَهُ اللهُ تَعَالى

تنبيه لطيف: حذف الهاء (هـ) المشار بها للسنة الهجرية ضرورة ملحَّة، إذْ لا يُمَيِّزُ الأصل، والأصل عندنا هو الهجري، وإنما يُشار للميلاد لكنه غريبًا على المسلمين.

الْوَصِيَّةُ بالأَزْوَاج

الفقرُ سنةٌ ماضية ، يبتلي اللهُ عز وجل به من شاء من عباده ، ويعصم منه من شاء ، وكلٌّ شيءٍ عنده بمقدار .

وستأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ في كتابنا هذا حكاية فقر جماعةٍ من السَّلفِ ، من الصحابةِ وغيرهم ، لترى أنَّك لستَ وحدك في طريق الفقر ، ولست أول الفقراء ، ولن تكون الآخر .

وعلى الناس أن تصبر على بلاء الله عز وجل ، وأن تطيع الله عز وجل في بلائهِ بالشكر له ، وترك الجزع ، أو الضجر من قدره سبحانه وتعالى .

وفي الفقر تظهر حكمة الزوجة العاقلة ، والصدر الدافيء ، بما يغمر به البيت من سكينةٍ وتسليمٍ لقدر الله عز وجل ، ويظهر فيه ـ أيضًا ـ طيب معدن المرأة الصالحة ، الصابرة مع زوجها على بلاء الله لهما ، كما يظهر فيه خبث معدن تلك المرأة الجزعة ، الدائمة الشكوى من فقرِ زوجها ، وعجزه عن الوفاء بحاجاتها .

لقد كانت المرأة في الصدر الأوَّل صابرةً مع زوجها ، محتسبةً ذلك عند ربها ، غير جزعة ولا ضجرة مما أصاب زوجها من فقرٍ ، كما أقدمت المرأة على الزواج بالفقير ؛ ما دام يحمل قلبًا مؤمنًا ، ونفسًا راضية بأمر الله عز وجل، مسلِّمةً له سبحانه وتعالى .

ووقفت المرأة مع زوجها حتى فتح الله عليهما ، وأغناهما من فضله سبحانه وتعالى .

لقد شربت المرأة في الصدر الأول من معين النبوة الصافي ، فَتَرَعْرَعَتْ شجرة التقوى في قلبها ، وأثمرت تلك الزوجة القانتة ، العابدة ، الصابرة ، المحتسبة .

ولم تكن المرأة في الصدر الأول همًّا على زوجها ، ولا كبَّلَتْه بلهيب مطالبها ، وزخرفها الفاني .

لقد أصبحت بعض الزوجات في عصرنا همًّا كبيرًا ، وعبئًا ثقيلاً على أزواجهنَّ ؛ نظرًا لسوء عشرتهن لأزواجهن له ، ونظرًا لما تفرضنه على الزوج كل يومٍ من تكاليف وواجبات؛ ترهق كاهله، وتفت من عضده .

وربما كانت الزوجة سببًا في نكوص كثير من الأزواج في هذا العصر عن مواضع الريادة ، ومواقع القيادة ، ودَعْك من قولهم : « خلف كل عظيم امرأة » الذي يردده البعض هنا وهناك ؛ إذ المرأة المقصودة بذلك هي تلك المرأة الصالحة التي تقف خلف زوجها تدفعه للأمام حتى يصير مع السابقين في شتى الميادين ، وأما أكثر نساء عصرنا ـ إلا من رحم الله ـ فلا يصدق عليهنَّ هذا القول وإن كان صادقًا قد تحقَّق الناس منه في أماكن شتَّى على مرِّ العصور.

لقد وقفت المرأة الأولى في عهد النبوَّة خلف زوجها ، وأعانَتْهُ بكلِّ ما تملك من مالٍ ، وما تطيق من جهد ، كما خفَّفَتْ عنه الآم الغربة ، ووحشة طريق الحق ، حتى رفع الله عز وجل منارة الهدى ، ولا زالت تلك المرأة المباركة تعطي المزيد ولا تنتظر المقابل .

جاء الوحي إلى النبي ﷺ فارتجفَ ، وأصابَهُ الرَّوْعُ ، فعادَ إلى خديجة رضي الله عنها فَزِعًا مما رأى، ترجُفُ بوادرُهُ ، ويضطرب فؤاده ، فقال لها : «**زَمِّلوني زَمِّلوني**» ، حتى ذَهَبَ عنه الرَّوْعُ فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ : «**لقد خشيتُ على نفسي**»(١).

فلم تقف خديجة رضي الله عنها مكتوفة الأيدي ، تنظرُ إليه ﷺ وهو

(١) راجع القصة مطولة في حديث عائشة الطويل في بَدْء الوحي عند البخاري (٣/ وغير موضع) ، ومسلم (١٦٠) .

يرتجف ، ويخبرها بسبب ذلك ثم لا تفعل شيئًا ، بل بادرت بتهدئته ﷺ ، وأثنتْ عليه بضروبٍ مِن الخيرِ تعرفها فيه ، حتى إذا سكنتْ نفسُه ، وهدأ رَوْعُه : ذهبت به إلى الخبير بتلك الأمور ، وهو ابن عمها ورقة بن نوفل ، فبشَّرَهُ ورقة ، وأخبره أنَّه نبيّ هذه الأمة ﷺ .

فقالت خديجة رضي اللَّه عنها : « كلا ؛ أبْشِر ، فوالله لا يُخزيك الله أبدًا، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحم ، وتصدق الحديث، وتحْمِلُ الكَلَّ[١] ، وتُكْسِبُ المعدومَ[٢] ، وتَقْرِي الضيفَ[٣] ، وتُعِينُ على نَوائِبِ الحقِّ[٤].

ثم انطَلَقَتْ به خديجة حتى أَتَتْ ورقةَ بن نوفل - وهو ابن عم خديجة ، أخي أبيها - فقالت له خديجة : يا ابن عمّ ! اسمعْ من ابن أخيك .

فقال له ورقة بن نوفل : يا ابن أخي ! ماذا ترى ؟ فأخبره ﷺ بما حَدَثَ له، فبشَّرَهُ وأخبره أنَّه نبي هذه الأمة ﷺ »

قال النووي[٥] رحمه اللَّه : « **قال العلماء رضي اللَّه عنهم** : معنى كلام خديجة رضي الله عنها أنَّك لا يصيبُك مكروهٌ ؛ لما جعلَ اللهُ فيك مِن مكارم الأخلاق وكرم الشمائل ، وذَكَرَتْ ضروبًا من ذلك .

وفي هذا دلالة على أنَّ مكارمَ الأخلاق ، وخصالَ الخير سبب السلامة مِن مصارع السوء .

---

(١) الكَلّ بفتح الكاف : هو مَن لا يستقلّ بأمرِه ، الضعيف الذي لا يغني نفسه ، والمراد أنه يحمله ويعينه ولا يدعه .

(٢) المراد أنه يعطي المعدوم الذي لا يكسب .

وانظر : « فتح الباري » لابن حجر (١/٣٣ - ٣٤) .

(٣) يعني : تُضيِّفُه وتُحْسن إليه .

(٤) قال ابن حجر : « هي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ، ولما لم يتقدَّم » اهـ

(٥) « شرح مسلم » (٢/٢٠٢) .

وفيه : مدح الإنسان في وجهه في بعض الأحوال لمصلحة .

وفيه : تأنيس مَن حصلتْ له مخافة مِن أمرٍ وتبشيره ، وذِكْر أسباب السلامة له .

وفيه : أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة ، رضي الله عنها ، وجزالة رأيها ، وقوة نفسها ، وثبات قلبها ، وعِظَم فقهها » اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى(١) : « واستدلَّتْ - يعني خديجة رضي الله عنها - بما فيه من الصفات الفاضلة ، والأخلاق والشِّيَم ، على أنَّ مَن كان كذلك : لا يخزى أبدًا ، فَعَلِمَتْ بكمال عقلها وفطرتها أنَّ الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشِّيَم الشريفة : تُنَاسِبُ أشكالها مِن كرامة الله وتأييده وإحسانه ، ولا تُناسبُ الخِزْي والخذلان ؛ وإنما يناسبه أضدادها .

فمَنْ رَكَّبَهُ اللهُ على أحسنِ الصفات ، وأحسن الأخلاق والأعمال : إنما يليق به كرامتُه ، وإتمام نِعْمته عليه .

ومَن رَكَّبَهُ على أقبحِ الصفات ، وأسوإِ الأخلاق والأعمال : إنما يليق به ما يناسبها .

وبهذا العقل والصِّدِّيقية : استَحَقَّتْ أن يُرْسِلَ إليها ربُّها بالسلام منه مع رسوليه : جبريل ومحمد ﷺ » اهـ

ولم تكن خديجة رضي الله عنها فريدةً في بابها ، وإنْ فاقتْ أقرانها في الفضل والسَّبْق رضي الله عنهن .

وهكذا تقف المرأة خلف زوجها ؛ تثبته ، وتُسكِّن نفسه ، وتذكر له ما يطمئنه ، حينما يُصاب بفزع أو يلحقه الرَّوْع ، فإذا حَزَبَهُ أمرٌ ، واحتاج

(١) « زاد المعاد » (٣/١٩) .

المشورة؛ لم تبخل عليه بذلك ، فتراها تنصح له بما يصلحه وبما تراه من الخير ، وربما كان لنصيحتها الأثر البالغ في تغيير مسار الأمور العِظام .

وهل أتاك نبأ تلك المشورة التي أدْلَتْ بها أم المؤمنين : أم سلمة رضي اللَّه عنها حين صَالَح النبيُّ ﷺ أهل مكة في الحديبية ، وكتبَ كتاب الصُّلْح بينه وبينهم ، فلمَّا فرغَ من قضية الكتاب ؛ قال ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم : « **قوموا فانحروا ثم احلِقوا** » ؟.

قال : فوالله ما قام منهم رجلٌ ، حتى قالها ثلاث مرات ، فلمَّا لم يَقُمْ منهم أحدٌ دخل رسولُ الله ﷺ على أمِّ سلمة رضي الله عنها فَذَكَرَ لها ما لَقِيَ من الناس .

فقالت أم سلمة رضي اللَّه عنها : يا نبيّ الله ! أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تُكَلِّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ[1] وتَدعو حالقك فيحلقُ لك . فخرج فلم يُكلِّم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بدنَه ودعا حالقَه فحلقَهُ ، فلمَّا رأَوْا ذلك قامُوا فنحروا ، وجعلَ بعضهم يحلِقُ بعضًا ... الحديث[2].

لقد امتنعَ المسلمون رضي الله عنهم عن النَّحْر والحَلْق أوّل الأمر ، لكن سرعان ما تغيَّرَ الحال بفضل ما وهبه الله عز وجل لأم سلمة رضي الله عنها مِن حُسْن المشورة ، وجميل النصيحة لزوجها ﷺ .

لم تقف أم سلمة رضي الله عنها صامتة ـ وحاشاها ـ وتقول له : هذا شأنك ، افعل ما شئت ! إلى آخر ما تردده المرأة المعاصرة في مثل هذا الحال ، لكنها نَصَحَتْ وأشارَتْ بما تراه مِن الخيرِ ، فصَنَعَت الحياة بمشورتها ، وغَيَّرت

(١) البَدَنَةُ مِن الإبل والبقر: كالأُضْحية من الغنم تُهْدَى إلى مكة، وتُذْبحُ هناك؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنَّهم كانوا يُسَمِّنونها.

(٢) رواه أحمد (٤/٣٢٣) ، والبخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) مطوّلاً .

الأحداث بنصيحتها ، ولك الآن أنْ تُدركَ السِّرَّ في رِفْعة هذا الجيل الأول من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ؛ فها هي إحدى نسائه تصنع الحياة وتحوّل الأحداث بمشورة منها فما بالك برجاله وأبطاله ؟!

ولم يكن هذا آخر ما قدَّمته المرأةُ الأولى لزوجها ؛ بل لا زالت على وفائها له ، وصبرها معه رغم فقره ، وضيق ذات يده ، فوقفت معه في محنة فقره حتى فتح الله عز وجل عليه وأغناه ، ومع ذلك لم تكفّ عن البحث عن حلٍّ يخرجها مما هي فيه إلى حياةٍ أفضل لها هي وزوجها .

قالت أسماء بنت أبي بكرٍ رضي اللّه عنها : « تزوَّجني الزُّبَيْر وما لهُ في الأرضِ من مالٍ ولا مملوك ، ولا شيء غير فرسه ، فكنتُ أعلفُ فرسَه ، وأكفيه مؤونتَه ، وأسوسُه[١] ، وأدقُّ النوى لناضحه[٢] ، وأعلفهُ وأسقيه الماء ، وأخْرُزُ غَرْبَهُ[٣] ، وأعجنُ ، ولم أكن أُحْسِن أخبزُ ، فكان يخبز لي جاراتٌ مِن الأنصار، وكنَّ نسوةُ صدْقٍ ، وكنتُ أنقلُ النوى مِن أرض الزُّبير التي أَقْطَعَهُ رسول الله ﷺ على رأسي ، وهي على ثُلُثَي فَرْسخ ، فجئتُ يومًا ، والنّوى على رأسي ، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ مِن أصحابه فدعاني ، ثم قال : «إخْ إخْ »[٤] لِيَحْمِلَني خلفَهُ ، فاستحييتُ أنْ أسيرَ مع الرجال ، وذكرتُ الزُّبيرَ وغيرَتَهُ ، وكان مِن أغيرِ الناسِ، فعرفَ رسولُ الله ﷺ أني قد استحييتُ ، فمضى ، وجئتُ الزبيرَ وقلتُ له ، فقال : واللهِ لَحَمْلُكِ النَّوى كان أشدّ عليَّ مِن ركوبك معه .

قالت : حتى أرسلَ إليَّ أبو بكرٍ بعدَ ذلك بخادمٍ فَكَفَتْني سياسةَ الفرسِ ،

---

(١) السياسة: القيام على الشيء بما يصلحه؛ يقال: هو يسوسُ الدوابَّ إذا قام عليها وراضَها.

(٢) الناضِحُ: البعيرُ أو الثَّوْرُ أو الحمارُ الذي يُستَقَى عليه الماء.

(٣) الغَرْب: الدّلْو العظيمة تُتَّخَذ من جلد الثَّوْر، والخَرْزُ: خياطة الأدَم، والمراد: أنها تقوم بخياطة دَلْوه.

(٤) صوت يُناخ به الجَمَل.

فكأنَّما أعتقني »[١] اهـ

لقد قامت أسماء رضي الله عنها بكل ذلك برضى نفسٍ ، ولم يرد عنها أنها اضطجرت مِن ذلك أو رفضت القيام بشيءٍ مِن الأعمال التي ذكرتها ، بل وقفت جنب الزبير في محنته وفقره ، حتى أرسلَ إليها أبو بكرٍ رضي الله عنه بخادمٍ فحملتْ عنها بعض الأعمال ، لكنها لم تحمل عنها كل شيءٍ .

وقد ورد نحو ذلك عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه : إنَّ فاطمة رضي الله عنها اشتكَتْ ما تَلْقى من الرَّحى[٢] في يدها ، وأَتَى النبيَّ سَبْيٌ[٣] ، فانطلقَتْ فلم تجدْهُ ، ولَقِيَتْ عائشة ، فأخبَرَتْها ، فلمَّا جاء النبيُّ ﷺ أخْبَرَتْه عائشةُ بمجيء فاطمة إليها ، فجاءَ النبيُّ ﷺ إلينا ، وقد أخذنا مضاجِعَنَا ، فذهبنا نقومُ .

فقال النبيُّ ﷺ : « على مكانكُما » فَقَعَدَ بيننا حتى وَجَدتُ بَرْدَ قَدَمِه على صَدْري ، ثم قال : « **ألا أُعَلِّمُكُما خيرًا مما سألْتُما ؟ إذا أخذتما مضاجِعَكُما أنْ تُكَبِّرا اللَّه أربعًا وثلاثين ، وتُسَبِّحاهُ ثلاثًا وثلاثين ، وتَحْمَدَاهُ ثلاثًا وثلاثين ، فهو خيرٌ لكما مِن خادم** »[٤] اهـ.

ومع ذلك لم تتراجع المرأة عن موقعها ، ولم تتنكَّر لزوجها بسبب فقره ، ولا تعالَتْ عليه بغناها أو نَسَبها ، بل وقفت معه في محنته حتى أغناه الله عز وجل .

---

(١) رواه البخاري (٣١٥١) (٢٥٢٤) ، ومسلم (٢١٨٢) ، وابن سعدٍ في « الطبقات » (٨/١٩٧ - ط: دار الكتب العلمية) .

وانظر تخريجي لكتاب : « مواقف نسائية » (ص١١٩ - ١٢٠) .

(٢) الرَّحَى: الحجر العظيم، التي يُطْحَنُ بها . وهي معروفة.

(٣) السَّبْيُ: الأسْرى أثناء الحرب.

(٤) رواه البخاري (٥٣٦١) (٦٣١٨) ، ومسلم (٢٧٢٧) .

فهؤلاء هُنَّ الزوجات اللاتي، انْبَلَجَ[١] عنهن فجر التاريخ، أمَّا الآن فحدث ولا حرج - عن كفران العشير ، ونشوز الزوجات[٢] ، في مسلسلٍ من الخروج على الزوج ، والمروق من طاعته !!

لقد وقفت المرأة الأولى مع زوجها تواسيه في مِحَنِه ، تُسَكِّنُهُ إذا فَزِعَ ، وتطمئنه إذا خَشِيَ شيئًا ما ، ولم تلتفت إلى علوٍّ نسبٍ لديها ، أو بيت عِزٍّ عاشت فيه قبل بيت زوجها ، فحفظتْ نفسها وزوجها ، وأخذت بيد بيتها إلى بر النجاة ، وطريق السلامة .

بل وصل الأمر إلى المشاعر ، فحافظت على مشاعر زوجها ، وحرصت على رضاه وعدم إيذائه في مشاعره بأيّ نوعٍ مِن الإيذاء ، وقد مضى قريبًا امتناع أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله عنها مِن الركوب مع النبي ﷺ وقولها : « وذكرتُ الزبيرَ وغيرتَهُ ، وكان مِن أغيرِ الناس » .

وفي رواية عن أسماء رضي اللَّه عنها قالت[٣] : وكنتُ أخدمُ الزبير خدمة البيتِ ، وكانت له فرس ، وكنت أسوسه ، فلم يكُن من الخدمة شيءٌ أشدَّ عليَّ مِن سياسةِ الفرس ، كنتُ أحتشُّ لهُ وأقومُ عليه وأسوسُه .

قال : ثم إنَّها أصابَتْ خادمًا ، جاءَ النبيُّ ﷺ سَبْيٌ فأعطاها خادمًا . قالت: كَفَتْنِي سياسةَ الفرسِ ، فألْقَتْ عَنِّي مُؤْنَتَهُ[٤] ، فجاءَني رجلٌ فقال : يا أمَّ عبد الله ! إنِّي رجل فقيرٌ أردتُ أنْ أبيعَ في ظلِّ دارك . فقالت : إنِّي إنْ رخَّصْتُ لكَ أَبَى ذلكَ الزُّبَيْرُ ، فتعالَ فاطْلُبْ إليَّ ، والزبيرُ شاهدٌ . فجاء فقال :

---

(١) انْبَلَجَ الصُّبْحُ: أسْفَرَ وأضَاءَ.

(٢) نَشَزَتِ المرأةُ على زوجها، وهي ناشِزٌ: ارتفَعَتْ عليه، واستَعْصَتْ عليه وأبْغَضَتْهُ وخَرَجَتْ عن طاعته.

(٣) رواه مسلم (٢١٨٢/ ٣٥) . وانظر : « فتح الباري » لابن حجر (٩/٢٣٥) .

(٤) يعني : تَعَبه وشِدَّته.

يا أم عبد الله ! إنِّي رجلٌ فقير أردتُ أنْ أبيعَ في ظلِّ دارك ، فقالت : ما لَكَ بالمدينةِ إلاَّ داري ؟ فقال لها الزبيرُ : ما لَكِ أنْ تَمنَعي رجلاً فقيراً يبيعُ ؟ فكان يبيعُ إلى أنْ كسبَ ، فَبِعْتُهُ الجاريةَ ، فدخل عليَّ الزُّبَيْر وثمنُها في حجري ، فقال : هَبِيها لي ، قالت : إنِّي قد تصدَّقْتُ بها » اهـ

وهل أتاكَ نبأُ أم سُلَيْمٍ مع أبي طلحة رضي اللَّه عنها ، حين مات ولدٌ لأبي طلحة ، وهو غائب ، فقالت لأهلها : لا تُحَدِّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكونَ أنا أُحدِّثُهُ ، فأجابوها إلى ذلك ، فتزيَّنَتْ له حتى أصاب منها ، وهيَّأَتْه لتلَقِّي الخبرَ ثم أخبرته بذلك بفطنةٍ وذكاء ؟ وتفصيل ذلك في حديث أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال[1] : « مات ابنٌ لأبي طلحة ، من أمِّ سُلَيْم ، فقالت لأهلها : لا تُحَدِّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أُحدِّثُهُ .

قال : فجاء فقرَّبَتْ إليه عشاءً ، فأكل وشربَ .

قال : ثم تَصَنَّعَتْ له أحسنَ ما كانَ تَصَنَّعُ قبلَ ذلك ، فَوقَعَ بها ، فلمَّا رأتْ أنَّه قد شَبِعَ وأصابَ منها ، قالت : يا أبا طلحةَ ! أرأيْتَ لو أنَّ قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيتٍ ، فطلبوا عاريتَهُمْ ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا . قالت : فاحتَسِبِ ابْنك ، قال : فغضبَ وقال : تركْتني حتى تلطَّخْتُ ثم أخبرْتني بابني ! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبرهُ بما كانَ .

فقال رسول الله ﷺ : « **بارك اللَّه لكما في غابرِ**[2] **ليلتكُما** ».

فحملتْ أمُّ سليم رضي الله عنها وولدت غلامًا سمَّاه رسول الله ﷺ : «عبد الله» .

فانظر إلى قوة نفسِ المرأة المسلمة ، ورباطة جأشها ، وصبرها على المحن

---

(١) رواه أحمد (٣/١٩٦) ، والبخاري (١٣٠١) ، ومسلم (٢٤٥٧) .

(٢) الغابر: الماضي.

في سبيل الله عز وجل ، وقد كافأها سبحانه وتعالى على ذلك ؛ ففي رواية في حديث أم سليم هذا[١] : « قال رجلٌ مِن الأنصار : فرأيتُ لهما تسعة أولادٍ كلّهم قد قَرَأَ القرآن » .

فهذا مَثَلٌ فريدٌ في حياة الزوجات ، حين تصبر المرأة على محنتها ، وتخفي حزنها على زوجها لئلاَّ يتكدَّر حاله، وتعمل جاهدةً على نيل رضى الله عز وجل ، حتى يخلف عليها هي وزوجها خيراً مما أخذ منهما .

قال ابن حجر[٢] : « وكان الحامل لأمِّ سُلَيْمٍ على ذلك : المبالغة في الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء إخلافه عليها ما فات منهـا ؛ إذْ لـو أَعْلَمَتْ أبا طلحة بالأمر في أوّل الحال : تنكَّدَ عليه وقته ولم تبلغ الغرض الذي أرادته ، فلمَّا عَلِمَ الله صدق نيتها : بلَّغَها مناها ، وأصلح لها ذريتها » اهـ

وتواصلُ المرأة سبيل الوفاء لزوجها ، فتبذل له مِن مالها إنْ كانت ذا مالٍ.

فعن زينب امرأة عبد اللَّه بن مسعود ـ رضي اللَّه عنهما ـ قالت : كنتُ في المسجد فرأيتُ النبيَّ ﷺ فقال : « **تَصَدَّقْنَ ولو مِن حُلِيكُنَّ** » وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتامٍ في حجرها ، فقالت لعبد الله : سَلْ رسول الله ﷺ : أيُجْزِئُ عنِّي أن أُنْفِقَ عليكَ وعلى أيتامي في حجري مِن الصدقة ؟ فقال : سلي أنتِ رسولَ الله ﷺ ، فانطلقتُ إلى النبي ﷺ فوجدتُ امرأةً من الأنصار على الباب حاجتُها مثلُ حاجتِي ، فمرَّ علينا بلالٌ ، فقلنا : سَل النبيَّ ﷺ : أيُجْزِئُ عنِّي أنْ أنفقَ على زوجي وأيتامٍ لي في حجري ، وقلنا : لا تُخْبِرْ بنا ! فدخل فسأله فقال : « **مَن هما ؟** » قال : زينب . قال : « **أيُّ الزَّيَانب ؟** » قال : امرأة عبد الله . قال : « **نعم ؛ ولها أجران : أجرُ القَرابة ، وأجرُ الصدقةِ** »[٣] .

---

(١) وهي عند البخاري (١٣٠١) .

(٢) « فتح الباري » له (٣/٢٠٤) .

(٣) رواه البخاري (١٤٦٦) ، ومسلم (١٠٠٠) .

لقد حرصت المرأة على رضى ربها في هذا الباب ، كما حرصت على ذلك في باقي الأبواب ، فلم ينقل الرواة أن إحدى نساء الجيل الأول تعالَتْ على زوجها بمالها ، أو عَيَّرَتْهُ بإنفاقها عليه ، ومع ذلك فقد نقل الرواة حرص هؤلاء النساء الفاضلات رضي الله عنهن على إخفاء ذلك حفاظًا على شعور أزواجهن، وحفظًا لأقدارِهن وهيبتهنّ ، وقد مضت رغبةُ زينب امرأة عبد الله ، وتلك الأنصارية التي وافقتها عند باب رسول الله ﷺ وقولهما لبلال : « لا تُخْبِرْ بنا ».

لقد أرادت زينب والأنصارية أن يكون عملهما خالصًا لوجهه سبحانه وتعالى ، كما حرصتا على حفظ شعور أزواجهن ، فأردنَ أن يخفين أنفسهن.

فأولئك هُنَّ أمهاتنا ، وبهم تكون القدوة وليس يليق بنساء المسلمين أن يتركْن القدوة بهؤلاء الشموس رضي الله عنهن ، وأن يطلبن الهدى عند الكافرات من الشرق أو الغرب ، كما لا يليق بالمسلم أن يطلب لنفسه زوجًا سافرة مواكبة لهؤلاء الكافرات وأن يميل عن تلك الزوجة المحجبة المباركة ، التي تتخذ أمهات المؤمنين ونساء الجيل الأول قدوة لها !

ولم يكن ما ذُكِرَ هو كل ما فعلته النساء في الصدر الأول تجاه أزواجهنّ؛ بل لا زالت المرأة الأولى دائمة على الوفاء لزوجها ، حريصة على تسليته عند مصيبته ، والسَّمَر معه ، ومساعدته في أموره ، وحياته ، والقيام بحقوقه ، بل بلغ الأمر منها مبلغًا عظيمًا حين حرصت على الوفاء له بعد موته.

فها هي أم سلمة رضي اللَّه عنها يموتُ عنها أبو سلمة فتذكره بالخير ، قالت : «فلمَّا مات أبو سلمة قلتُ : أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة ؟ أوّل بيتٍ هاجر إلى رسول الله ﷺ »[1] وتقول أيضًا[2] : « لَمَّا مات أبو سلمة قلتُ :

(١) رواه مسلم (٩١٨) .

(٢) رواه أحمد (٦/٢٨٩) ، ومسلم (٩٢٢) .

غريبٌ وفي أرضٍ غربة ، لأبْكينَّهُ بكاءً يُتحدَّثُ عنه ، فكنتُ قد تهيَّأْتُ للبكاءِ عليه إذْ أقبلتِ امرأةٌ مِن الصعيد[١] تريدُ أن تُسْعِدَني[٢] ، فاستقبلها رسولُ الله ﷺ وقال : « **أتُريدين أن تُدْخلي الشيطانَ بيتًا أخرجَهُ اللَّه منه ؟** » مرتين . فكففتُ عـن البكـاءِ فلم أبكِ . اهـ

وهل أتاك نبأ أم هانيءٍ رضي اللَّه عنها ؟

فعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه ؛ أنَّ رسول الله ﷺ خطبَ أمَّ هانيءٍ بنتَ أبي طالبٍ ؛ فقالت : يا رسول الله ! إنِّي قد كَبِرْتُ وَلِيَ عيالٌ . فقال رسول الله ﷺ : « **خَيْرُ نساءٍ ركبْنَ الإبلَ : نساءُ قريشٍ ؛ أحْنَاهُ[٣] على ولدٍ في صِغَرِه ، وأرعاهُ على زوجٍ في ذات يده** » .

قال أبو هريرة : ولم تركب مريمُ بنت عِمْران بعيرًا قطُّ[٤] . اهـ

فأولئك هُنَّ الزوجات اللاتي أسفر عنهنَّ فجر الإسلام ، ورفع الله بهنَّ منارت الهدى ، وحفظ بهنّ أبطال الإسلام ، وحماة العقيدة في الصدر الأول، وهنّ القدوة لمن بعدهن ، فمَن طلب القدوة في غيرِهن ضلَّ السبيل ، وما له مِن هاد ، فهم القوم لا يَشقى بهم جليسهم ؛ فبهداهم اقتده .

* * *

(١) المراد بالصعيد هنا : عوالي المدينة .

(٢) يعني : تساعدها في البكاء .

(٣) المرأة الحانية: هي التي تُقيم على ولدِها ولا تتزوَّج بعد أبيهم، فهي حانية، وإذا تزوَّجَتْ بعده فليست بحانيةٍ.

(٤) رواه عبد الرزاق (٢٠٦٠٣) ومن طريقه أحمد (٢٦٩/٢) ، ومسلم (٢٥٢٧) .
وله طرق أخرى عندهم . وهو في « الصحيحين » دون ذِكْر خِطْبة النبي ﷺ لأمِّ هانئ رضي الله عنها .
وقول أبي هريرة رضي الله عنه يدفع ما قد يتوهّمه بعضهم من تقديم بعض النساء على مريم بنت عمران عليها السلام؛ إذ الحديث عمن رَكِبْنَ الإبل، ولم تركب مريمُ عليها السلام بعيرًا قط، كما ذكر أبو هريرة رضي الله عنه.

الْفَقْرُ لَيْسَ عَيْبًا

قَضَتْ حكمةُ الله عز وجل أن يبتلي جماعة من عباده ببلاء الفقر ، ولم ينصب الله عز وجل ميزان الرضى والقبول لعباده في آخرتهم بناءً على ما يملكونه من حُطَام الدنيا الفاني ؛ وإنما نصبَ لهم الميزان وحاسبهم على أعمالهم ، وحكم أنَّ أكرمَ الناس أَتْقَاهم ؛ فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وزادَ ذلكَ بيانًا فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾[1] [سبأ : ٣٤ - ٣٨] .

قال القرطبيُّ رحمه الله تعالى في تفسير آية الحجرات السابقة[2] : « وفي هذه الآية ما يدلّك على أن التقوى هي المراعى عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ دون الحَسَب والنَّسَب ... » اهـ

وهذا واضح ظاهر ، وقد ورد هذا المعنى في الشرع من غير وجهٍ ؛ في الحديث أنَّ الغنى غنى النَّفْسِ .

فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ، عن النبي ﷺ قال : « **لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ؛ ولكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ** »[3] اهـ

وفي المأثورات : « القناعة كنزٌ لا يفنى » .

---

(١) راجع : « تفسير القرطبي » (١٤/٣٠٥ - ٣٠٦) .

(٢) السابق (١٦/٣٤٥) ، وراجع بقية كلامه هناك .

(٣) رواه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .

وراجع في شرحه: « فتح الباري » لابن حجر رحمه الله (١١/٢٧٢).

وقد عَالَجَ النبيُّ ﷺ وأصحابه شيئًا عظيمًا من الفقر[١]، حتى كان بعضهم يمكث الليالي ذوات العدد لا يجد سوى الأسودين : التمر والماء ، وتُوفِّي ﷺ على حالته من الفقر ، وما افتكَّ دِرْعَه المرهونة[٢] عند يهوديٍّ أخذ منه ﷺ شعيرًا لأهله .

فعن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت لعُروةَ : « ابنَ أختي ! إنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهلال ، ثُمَّ الهلال ، ثَلاثَةَ أهلة ، في شَهْرَيْن ، وَما أوقدَتْ في أبياتِ رسول الله ﷺ نارٌ » .

فقلت[٣] : يَا خَالَةُ ! ما كانَ يُعيشُكُم ؟

قالت : الأسودان ؛ التَّمْرُ وَالمَاءُ ؛ إلاَّ أنَّهُ قَدْ كانَ لرسُولِ الله ﷺ جيرَانٌ مِنْ الأنصَار ، كانتْ لهُمْ مَنَائِحُ[٤] ، وَكانُوا يَمْنَحُونَ رسول الله ﷺ مِنْ أَلبَانِهِم فَيَسْقِينَا »[٥] اهـ

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه : « أنَّهُ مَرَّ بقَوم بَيْنَ أيْديهم شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ ، فَدَعَوْهُ ؛ فأبَى أنْ يَأكُلَ ، وقال : خَرَجَ رسُولُ الله ﷺ مِنْ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبزِ الشَّعِير »[٦] اهـ

وعن أنس رضي الله عنه : « أنَّهُ مَشى إلى النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْزَ شَعِير، وَإهالة سَنخَةٍ ، ولقدْ رَهَنَ النَّبيُّ ﷺ دِرْعًا لهُ بالمدينةِ عندَ يَهُودِيٍّ ، وأخَذَ مِنْهُ شَعِيرًا

(١) راجع : « صحيح البخاري » (١١/٢٧٣ - ٢٨٣/ مع فتح الباري لابن حجر).
(٢) فَكَّ الرَّهْنَ يفُكُّهُ فكًا وافْتَكَّهُ : بمعنى خلَّصَهُ.
(٣) القائل هو عروة بن الزبير ابن أخت عائشة رضي الله عنهما .
(٤) مَنَحَهُ الناقةَ: جعلَ له وَبَرَها وولدَها ولبنَها، وهي المِنْحَةُ والمَنِيحَةُ.
قال اللِّحْيَانيُّ: ولا تكونُ المنيحةُ إلاَّ المُعارَةَ لِلَّبنِ خاصَّةً.
والمراد أنَّ جيرانَه ﷺ كانوا يهبون له ويعطونه من لبن إبلهم أو غنمهم.
(٥) رواه البخاري (٢٥٦٧) ، ومسلم (٢٩٧٢) .
(٦) رواه البخاري (٥٤١٤) .

لأهله ، ولَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : **مَا أمسَى عِنْدَ آلِ مُحمَّدٍ ﷺ صاعُ بُرٍّ ، ولا صَاعُ حَبٍّ ، وإنَّ عِنْدَهُ لَتِسْعَ نِسْوَةٍ** »[1] اهـ

وعنْ أبي حَازم قال : سألتُ سهلَ بْنَ سعدٍ فقلتُ : هَلْ أكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّقِيَّ ؟ فَقَالَ سَهْلٌ : « ما رأى رسولُ اللهِ ﷺ النَّقِيَّ[2] مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللهُ حتَّى قَبَضَهُ اللهُ .

قال : فَقُلْتُ : هَلْ كانتْ لكم في عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ مَنَاخِلُ ؟

قال : ما رأى رسولُ اللهِ ﷺ مُنْخُلاً مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللهُ حتَّى قَبَضَهُ اللهُ .

قال : قُلْتُ :كيفَ كُنْتُم تَأكُلونَ الشَّعِيرَ غَيْرَ مَنْخُولٍ ؟

قال : كُنَّا نَطحَنُهُ ونَنْفُخُهُ فَيَطِيرُ مَا طارَ ، وَمَا بَقِيَ ثَرَّيْنَاهُ فأكَلْنَاهُ »[3] اهـ.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وما في بَيْتِي مِنْ شيءٍ يأكُلُهُ ذو كَبِدٍ ؛ إلا شَطرُ شَعِيرٍ ، في رَفٍّ لِي ، فأكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طالَ عليَّ فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ »[4] اهـ

وعَنْ أنسِ بْنَ مَالك رضي الله عنه قال : « قال أبو طلحَةَ لأمِّ سُلَيْم : لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُول اللهِ ﷺ ضَعِيفًا ، أعْرِفُ فِيهِ الجُوعَ ، فَهَلَ عِنْدَكِ مِنْ شيءٍ ؟

قَالتْ : نَعَمْ ؛ فَأخْرَجَتْ أقْرَاصًا مِنْ شَعِير ، ثُمَّ أخْرَجَتْ خِمَارًا لَها ، فَلَفَّتْ الخُبْزَ بِبَعْضِه ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدِي ، وَلاثَتْنِي بِبَعْضِه[5] ، ثُمَّ أرْسَلَتْنِي إلى رَسُولَ اللهِ ﷺ .

---

(١) رواه البخاري (٢٠٦٩) .

(٢) خبز الدقيق وهو النظيف الأبيض.

(٣) رواه البخاري (٥٤١٣) .

(٤) رواه البخاري (٣٠٩٧) ، ومسلم (٢٩٧٣) .

(٥) يعني : لفَّتْني به .

قال : فَذَهَبْتُ به فَوَجَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ في المسْجِد ، ومَعَهُ النَّاسُ ، فَقُمْتُ عَلَيْهم ، فَقَالَ لي رَسُولُ الله ﷺ : **آرْسَلَكَ أبو طلحة ؟**

فقُلتُ : نَعَمْ .

قال : **بطعام ؟**

فقلتُ : نعم .

فقال رسول الله ﷺ لِمَنْ مَعَهُ : قُومُوا ، فانْطَلَقَ وانطلقتُ بَيْنَ أيْدِيهم ، حتَّى جئتُ أبا طلحة ، فأخبرْتُهُ .

فقال أبو طلحة : يا أمَّ سُليم ! قد جاءَ رسُول الله ﷺ بالنّاسِ ، وَلَيْسَ عنْدَنَا ما نُطعِمُهُم .

فقالت : اللهُ ورَسُولُهُ أعْلَمُ ، فانْطلقَ أبو طلحةَ حتَّى لقيَ رسُولَ الله ﷺ ، فَأقبَل رسُولُ الله ﷺ ، وأبو طلحةَ مَعَهُ .

فقال رسول الله ﷺ : **هَلُمِّي يَا أمَّ سُلَيْم مَا عِنْدك** ، فَأتَتْ بِذَلكَ الخُبْز ، فأمَرَ به رسُولُ الله ﷺ ففتَّ ، وعصرت أمُّ سُلَيْم عُكَّةً[1] ، فأدَمَتْهُ ، ثُمَّ قَالَ رسُولُ الله ﷺ فيه ما شاءَ اللهُ أنْ يَقُولَ ، ثُمَّ قال : **ائذنْ لِعَشَرَةٍ** ، فَأذنَ لهُم ، فأكلوا حتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ خَرَجُوا ، ثُمَّ قَال : **ائذن لِعَشَرَةٍ** ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة ، فأكل القومُ كلُّهم ، وشَبِعُوا ، والقومُ سَبْعُونَ - أو ثمانُونَ رَجُلاً »[2] اهـ

وعن أبي مسعُودٍ رضي الله عنه قال : « جاءَ رجلٌ منْ الأنصار يُكْنَى أبا شعيبٍ ، فقال لغلام له قَصَّاب : اجعل لي طعامًا يكفي خمسةً ؛ فإنِّي أريدُ أن أدعو النَّبيَّ ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ ، فإنِّي قَدْ عَرَفْتُ في وجهِهِ الجُوعَ ، فَدَعَاهُم فجَاءَ مَعَهُم رَجُلٌ.

---

(١) العكة : قربة من جلد يحفظ فيها السمن .

(٢) رواه البخاري (٣٥٧٨) ، ومسلم (٢٠٤٠) .

فَقَالَ النبيُّ ﷺ : **إنَّ هَذَا قَدْ تَبِعَنَا ؛ فإنْ شِئْتَ أنْ تَأذنَ لهُ فأذن لهُ ، وإن شئتَ أن يَرْجِعَ رَجَعَ .**

فقال : لا ، بل قد أذنتُ له »[1] اهـ

وعَنْ أنسٍ رضي الله عنه قال : « خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إلى الخَنْدَق ، فَإذا المُهَاجِرُونَ والأنْصَارُ يَحْفِرُونَ في غدَاةٍ بَارِدَةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ النَّصَبِ وَالجُوع قَالَ :

اللَّهُمَّ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَة ... فَاغْفِرْ للأنْصَارِ والمُهَاجِرَه

فَقَالُوا مُجيبينَ لهُ :

نَحْنُ الذينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أبَدَا »[2] اهـ

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عَنْهُ أنه كَانَ يَقُولُ : « آللهِ الَّذي لا إلَهَ إلاَّ هُوَ إنْ كُنْتُ لأعْتَمِدُ بكبدي على الأرْض من الجُوع ، وإنْ كُنْتُ لأشدُّ الحَجَرَ على بَطنِي مِنْ الجُوع ، ولَقَدْ قَعَدْتُ يومًا على طريقِهِم ، الَّذي يَخْرُجُونَ مِنْهُ ، فَمَرَّ أبُو بَكْر ، فَسَأَلتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كتَاب الله ؛ مَا سَأَلتُهُ إلاَّ لِيُشبِعَنِي ، فمرَّ ولَم يفعَل، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ ؛ فَسَأَلتهُ عَنْ آيةٍ مِنْ كتَاب الله ؛ ما سَألتهُ إلاَّ لِيُشْبِعَنِي ، فَمَرَّ فَلم يَفعَل ، ثُمَّ مَرَّ بي أبُو القَاسَم ﷺ ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رآني ، وَعَرَفَ مَا في نَفْسِي ، ومَا فِي وَجْهِي .

ثُمَّ قَالَ : **يا أبَا هِرّ !** قُلتُ : لبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله .

قال : **الحق** ، ومَضى ، فَتَبِعْتُهُ ، فَدَخَل ، فاستأذنَ فأذِنَ لِي ، فَدَخَل فوَجَدَ لَبَنًا في قَدَح .

فَقَال : **مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ ؟** قالوا : أهْدَاهُ لكَ فُلانٌ أو فُلانَةُ .

---

(١) رواه البخاري (٢٠٨١) ، ومسلم (٢٠٣٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٨٣٤) ، ومسلم (١٨٠٥) .

قال : **أبَا هرٍّ** ! قلتُ : لبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله .

قال : **الحَقْ إلى أهْلِ الصُّفَّةِ ؛ فَادْعُهُمْ لِي** .

قالَ : وأهلُ الصُّفَّةِ أضْيَافُ الإسْلام ، لا يَأوُونَ إلى أهْلٍ ، ولا مَالٍ ، ولا على أحدٍ ، إذا أتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إليْهِمْ ، ولم يَتَنَاوَل مِنْهَا شيئًا ، وإذا أتَتْهُ هَدِيَّةٌ أرْسَلَ إليهم ، وأصَابَ منهَا ، وأشْرَكَهُمْ فيهَا ، فسَاءَنِي ذلكَ ، فَقُلْتُ : ومَا هذَا اللَّبَنُ فِي أهْلِ الصُّفَّة ؟ كُنْتُ أحَقُّ أنَا أنْ أصيبَ مِنَ هَذَا اللبَن شَرْبَةً أتَقَوَّى بِهَا ، فإذا جَاءَ أمَرَنِي فَكُنْتُ أنَا أعطيهم ، ومَا عَسَى أن يَبْلُغَنِي مِنْ هَذا اللَّبَن ؟ ولم يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ الله وطاعَةِ رسُولِهِ ﷺ بُدٌّ ، فأتَيْتُهُم ، فَدَعَوْتُهُم ، فَأقْبَلُوا فَاسْتَأذَنُوا فَأذِنَ لهُم ، وأخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ البَيْتِ .

قال : **يا أبَا هرٍّ** ! قُلْتُ : لبَّيْكَ يا رَسُولَ الله .

قال : **خُذْ فأعطهم** .

قال : فأخَذْتُ القَدَحَ ، فَجَعَلْتُ أعطيه الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ فَأعطيه الرَّجُل فَيَشْرَبُ حتَّى يَرْوَى ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يروى ، ثُمَّ يَرُدُّ عليَّ القَدَحَ[1] ، حتَّى انْتَهَيْتُ إلى النَّبيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ القَوْمُ كُلُّهُمْ فَأخَذَ القَدَحَ فَوَضَعَهُ على يَدِهِ فَنَظرَ إليَّ فَتَبَسَّمَ ، فَقَال : **أبَا هرٍّ** ! قُلْتُ : لبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله .

قال : **بَقِيتُ أنا وأنْتَ** ، قُلْتُ : صَدَقْتَ يَا رَسُولَ الله .

قال : **اقْعُدْ فَاشْرَبْ** ، فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ .

فَقَالَ : **اشْرَبْ** فَشَرِبْتُ فَمَا زَالَ يَقُولُ : اشْرَبْ ؛ حَتَّى قُلْتُ : لا وَالذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ مَا أجِدُ لهُ مَسْلَكًا .

قال : **فأرِنِي** ، فَأعْطَيْتُهُ القَدَحَ ، فَحَمِدَ الله وسَمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ »[2] اهـ

---

(١) كذا الحديث عند البخاري.

(٢) رواه البخاري (٦٤٥٢) ، وراجع في شرحه : «فتح الباري» لابن حجر (١١/٢٨٣ - ٢٨٩).

وعَنْ مُحَمَّدِ بن سيرين رحمه الله قَالَ : كُنَّا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَلَيْهِ ثَوْبَان مُمَشَّقَان مِنْ كَتَّان ، فَتَمَخَّط فَقَالَ : بَخْ بَخْ أَبُو هُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ فِي الكَتَّانِ ؟! لَقَدْ رَأَيْتُنِي وإِنِّي لأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلى حُجْرَةِ عَائِشَةَ مَغْشِيًّا عَلَيَّ ، فَيَجِيءُ الجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي ، وَيُرَى أَنِّي مَجْنُونٌ ، وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ ، مَا بِي إِلاَّ الجُوعُ »[1] اهـ

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: « أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وإِنِّي كُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشِبَعِ بَطْنِي ، حَتَّى لا آكُلُ الخَمِيرَ ، وَلا أَلْبَسُ الحَبِيرَ ، ولا يَخْدُمُنِي فُلانٌ ولا فُلانَةُ ، وكُنْتُ أُلْصِقُ بَطْنِي بالحَصْبَاءِ[2] مِنَ الجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لأَسْتَقْرِيءُ الرَّجُلَ الآيَةَ هِيَ مَعِي كَي يَنْقَلِبَ بِي فَيُطْعِمَنِي ، وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ للمسكين جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طالبٍ ، كَانَ يَنْقَلِبُ بِنَا فَيُطْعِمُنَا مَا كَانَ فِي بَيْتِهِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيُخْرِجُ إِلَيْنَا العُكَّةَ[3] التي لَيْسَ فِيهَا شَيءٌ فَنَشُقُّهَا فَنَلعَقُ مَا فيها »[4] اهـ

وعن رَافع بن خديج قال : « كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِذِي الحُلَيْفَةِ ، فَأَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ ، فأَصَابُوا إِبلاً وَغَنَمًا .

قال : وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُخْرَيَاتِ القَوْمِ ، فَعَجِلُوا وَذَبَحُوا ، وَنَصَبُوا القُدُورَ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بالقُدُورِ فَأُكْفِئَتْ ، ثُمَّ قَسَمَ فَعَدَلَ عَشَرَةً مِنَ الغَنَمِ بِبَعِيرٍ ، فَنَدَّ[5] مِنْهَا بَعِيرٌ فَطَلَبُوهُ ، فَأَعْيَاهُمْ ، وكَانَ فِي القَوْمِ خَيْلٌ يَسِيرَةٌ فَأَهْوَى رَجُلٌ مِنْهُمْ بِسَهْمٍ فَحَبَسَهُ اللهُ .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ لِهَذِهِ البَهَائِمِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الوَحْشِ[6] ، فَمَا غَلَبَكُمْ مِنْهَا

(١) رواه البخاري (٧٣٢٤) .

(٢) الحصباء : الحصى.

(٣) العكة: قربة من جلد يحفظ فيها السمن.

(٤) رواه البخاري (٣٧٠٨) .

(٥) هرب ونَفَر .

(٦) أوابد : نافرة متوحشة .

فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا .

فَقَالَ رَافِعٌ : إِنَّا نَرجُو ـ أو نَخَافُ ـ العَدُوَّ غَدًا ، وَلَيْسَتْ مَعَنَا مُدًى[١] ، أَفَنَذْبَحُ بالقَصَبِ[٢] ؟

قالَ : مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ ، لَيْسَ السِّنَّ والظُّفُر ، وسَأُحَدِّثُكُم عَنْ ذلكَ : أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ ، وَأَمَّا الظُّفُرُ فَمُدَى الحَبَشَةِ »[٣] اهـ

وعن جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهُ قال : « بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاثَ مِائَةِ رَاكِب ، أَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ ، نَرْصُدُ عِيرَ قُرَيْشٍ ، فَأَقَمْنَا بالسَّاحِلِ نِصْفَ شَهْرٍ ، فَأَصَابَنَا جُوعٌ شَدِيدٌ ، حَتَّى أَكَلْنَا الخَبَطَ[٤] ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ الجَيْشُ جَيْشَ الخَبَطِ ، فَأَلْقَى لَنَا البَحْرُ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا العَنْبَرُ ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ وَادَّهَنَّا مِنْ وَدَكِهِ[٥] ، حَتَّى ثَابَتْ[٦] إِلَيْنَا أَجْسَامُنَا ، فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ ضِلعًا مِنْ أَضْلاعِهِ ، فَنَصَبَهُ ، فَعَمَدَ إِلَى أَطْوَلِ رَجُلٍ مَعَهُ ـ قَالَ سُفْيَانُ[٧] مَرَّةً : ضِلعًا مِنْ أَضْلاعِهِ ، فَنَصَبَهُ وَأَخَذَ رَحْلاً وَبَعِيرًا ـ فَمَرَّ تَحْتَهُ .

قالَ جَابِرٌ : وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ نَحَرَ ثَلاثَ جَزَائِرَ ، ثُمَّ نَحَرَ ثَلاثَ جَزَائِرَ ، ثُمَّ نَحَرَ ثَلاثَ جَزَائِرَ ، ثُمَّ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ نَهَاهُ[٨] »اهـ

وعَنْ أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ قَالَ : « إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى يَوْمَ النَّحْرِ ، ثُمَّ خَطَبَ ، فَأَمَرَ مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلاةِ أَنْ يُعِيدَ ذَبْحَهُ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ

---

(١) المدية : السكين .

(٢) القَصَب: كلُّ نباتٍ كان ساقه أنابيب، أوكل عَظْمٍ مستدير أجْوَف. واحدته: قَصَبَةٌ.

(٣) رواه البخاري (٢٤٨٨) ، ومسلم (١٩٦٨) .

(٤) الخبط : ما سقط من ورق الشجر .

(٥) دسم اللحم .

(٦) يعني رجعت ، والمراد أنهم استردُّوا عافيتهم .

(٧) سفيان بن عيينة رحمة الله عليه ، راوي هذا الحديث ، عن عمرو بن دينار ، عن جابرٍ .

(٨) رواه البخاري (٤٣٦١) ، ومسلم (١٩٣٥) .

فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ! جيرَانٌ لي ، إمَّا قَالَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وإمَّا قَالَ : بهم فَقْرٌ ، وإنِّي ذَبَحْتُ قَبْلَ الصَّلاةِ وَعِنْدِي عَنَاقٌ لِي أَحَبُّ إليَّ مِنْ شَاتَي لَحْمٍ ؟ فَرَخَّصَ لهُ فيها »[1] اهـ

ومن هذه النصوص وغيرها يلوح لك ما كان عليه القوم الأوائل من الفقر والحاجة ، مع التسليم لله عز وجل ، والرضى بقدره ، حتى شاء الله عز وجل بالفتح عليهم بعد ذلك .

ولم يَخْشَ النبيُّ ﷺ على أُمّتِه من الفقرِ؛ في الوقتِ الذي سجَّل فيه ﷺ خشيته أنْ تُبْسَطَ عليها الدنيا.

فَعَنِ المِسْوَرِ بْن مَخْرَمَةَ أنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْف الأنْصَارِيَّ - وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ ، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا - أخْبَرَهُ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ أبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ إلى البَحْرَيْنِ يَأتي بِجِزْيَتِهَا ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ صالحَ أهْلَ البَحْرَيْنِ ، وأمَّرَ عَلَيْهِمْ العَلاءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ ، فَقَدِمَ أبُو عُبَيْدَةَ بِمَال مِنَ البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأنْصَارُ بِقُدُومِ أبي عُبَيْدَةَ ، فَوَافَتْ صَلاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمْ الفَجْرَ ، انْصَرَفَ ، فَتَعَرَّضُوا لهُ ، فتبسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ رآهُمْ .

وَقَالَ : أظُنُّكُم قَدْ سَمِعْتُمْ أنَّ أبَا عُبَيْدَةَ قَدِ جَاءَ بِشَيءٍ .

قالوا : أجَلْ يَا رَسُولَ الله !

قَالَ : فَأبْشِرُوا ، وأمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ ؛ فَوَالله لا الفَقْرَ أخْشَى عَلَيْكُمْ ، ولكنْ أخشَى عَلَيْكُمْ أنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُهْلِكَكُم كَمَا أهْلَكَتْهُمْ »[3] اهـ .

---

(١) رواه البخاري (٩٨٤) ، ومسلم (٦٩٠) .

(٢) وانظر : كتابي عن «عَزَاءِ الفُقَرَاءِ».

(٣) رواه البخاري (٣١٥٨) ، ومسلم (٢٩٦١) .

وفي معنى ذا الحديث: يأتي قول الإمام العَلَم سفيان بن سعيد الثَّوْرِي رحمه الله[١] : « لَمْ يَفْقَه[٢] عندنا مَنْ لمْ يَعدَّ البلاءَ نعمة، والرَّخاءَ مصيبة»اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله[٣] : «وقيل: أكثر الناس هَمًّا بالدنيا: أكثرهم هَمًّا في الآخرةِ، وأقلّهم همًّا بالدنيا: أقلّهم هَمًّا في الآخرة.

فالإيمانُ بالقَدَرِ، والرِّضى به: يُذْهِبُ عن العبدِ الهَمَّ والغَمَّ والحَزَنَ» اهـ

وهذا كله يصب في قناة التحذير من الدنيا، والركون إليها، أو الاغترار بزينتها وزخرفها، والالتفات إلى بسطتها، فما أَقْبَلَت الدنيا إلاَّ أَدْبَرَتْ، وما تَزَيَّنَتْ إلاّ زالت وذهبت، ولو دامتْ لغيرِنا ما وصلَتْ إلينا، والسعيد مَن وُعِظَ بغيره.وليس المراد من ذلك كله: الركون إلى الفقر، وترك السعي على الكسب، وعمارة الأرض بالضرب فيها؛ ابتغاءَ الرزق.

وقد ورد الحثُّ على العمل وعمارة الكون في الشريعة من غير وجهٍ، كما وردت استعاذَةُ النبيّ ﷺ من الفقر، وجَعْله من الفتنِ ؛ في جملةٍ من المرويَّات، من ذلك:

حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الكَسَلِ ، والهَرَمِ ، والمأثم ، والمَغْرَمِ ، وَمِنْ فَتْنَةِ القَبْرِ ، وعَذَابِ القَبْرِ ، ومِن فَتْنَةِ النَّارِ ، وعَذَابِ النَّارِ ، ومِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الغِنَى ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الفَقْرِ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ ، اللهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ والبَرَدِ ، ونَقِّ قَلبِي مِنْ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيضَ مِنْ الدَّنَسِ ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ »[٤] اهـ

(١) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/٩٤).

(٢) الفقه: الفهم.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢٢١).

(٤) رواه البخاري (٦٣٦٨) ، ومسلم (٥٨٩) .

قال ابن القيم رحمه الله[١] : « والشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر ؛ فإن يعقوب عليه السلام وَعَدَ بالصبر الجميل ، والنبي إذا وَعَدَ لا يخلف ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف / ٨٦] . وكذلك أيوب أخبر الله عنه أنه وجده صابراً مع قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء / ٨٣] .

وإنما يُنافي الصبرَ شكوى الله ، لا الشكوى إلى الله ، كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فَاقَةً وضرورةً ، فقال : يا هذا ! تشكو مَن يرحمك إلى مَن لا يرحمك ؟ ثم أنشد :

وإذا عَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فاصْبِرْ لها صَبْرَ الكريمِ فإنَّهُ بكَ أعْلَمُ
وإذا شكوتَ إلى ابنِ آدمَ إنَّما تَشْكُو الرحيمَ إلى الَّذِي لا يَرْحَمُ

..... وأجمع عقلاء كل أمةٍ على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، وأن من رافَق الراحة فارق الراحة ، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة ، فإن على قدر التعب تكون الراحة

على قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتي العَزَائِمُ وتأتي على قَدْرِ الكريمِ الكَرائِمُ
ويَكْبُرُ في عينِ الصغيرِ صغيرُها وتَصْغُرُ في عينِ العظيمِ العظائِمُ »اهـ

ومع هذا الصبر؛ فلابد للإنسان من عملٍ يُغْنيه عن سؤال الناس، وسعيٍ تَبْرأ به ذِمَّته أمام ربِّه عز وجل.

قال عبد الله بن الإمام أحمد رحمهما الله تعالى[٢] :

«سألتُ أبي عن المرأة الفقيرة تجيء إلى اليهودي أو النصراني؛ تتصدَّق منه؟

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٨٤).

(٢) «مسائل الإمام أحمد - برواية ابنه عبد الله» (ص/٤٤٨ رقم ١٦٢٤ - ١٦٢٥/ ط: المكتب الإسلامي».

قال[1] : أخشى أن يكون ذلك ذلٌّ.

سألت أبي عن قومٍ يقولون: نَتَّكِلُ على الله ولا نكتسب؟

قال أبي: ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله؛ ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] فهذا قد علم أنهم يكتسوبن ويعملون.

وقال النبيُّ ﷺ: «**مَن عَالَ ابْنَتَيْن ـ أو ثلاثة ـ فله الجنة**» .

يعني: مَن قال بخلاف هذا؛ فهذا قول إنسان أحمق»اهـ.

وفي ذلك كله إرشاء للمسلم ـ عامة ـ حين يلفحه تيار الفقر، ويُلْهِبُ ظهرَهُ ألم الحرمان: أن يعملَ جاهدًا للخروج من فقرِه، مع التدرُّع بلباس التقوى وزينة الصبر، وترك الاعتراض على قَدَرِ الله عز وجل، أو الشكوى لغير الله عز وجل.

* * *

(١) يعني: الإمام أحمد رحمه الله.

آدَابُ الفَقيرِ

وقال ابنُ زنجي البغدادي[1] :

لا تَتَّهِمْ رَبَّكَ فيما قَضَى ... وَهَوِّنِ الأمـرَ، وَطِبْ نَفْسَا

لِكُلِّ هَمٍّ فَرَجٌ عاجـــلٌ ... يَأتي على المُصْبِحِ وَالْمَمْسَى

وقال الأبْرَشُ[1] :

هَوِّنْ على نَفْسِكَ مِن سَعْيِها ... فَلَيْسَ ما قُـدِّرَ مَـــرْدُودُ

وَارْضَ بحكمِ اللهِ في خَلْقِـهِ ... كُـلُّ قَضَـــاءِ اللهِ محمـودُ

(١) يأتي ذلك إن شاء الله في (ص/٧٢، ٧٣) من هذا الكتاب.

فصل

الرضى ببلاء اللَّه عز وجل[1]

قال الغزالي رحمه الله[2] :

« اعلم أنَّ للفقير آدابًا في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها .

فأمَّا أدب باطنه : فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني : أنه لا يكون كارهًا فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ـ وإن كان كارهًا للفقر ـ كالمحجوم يكون كارهًا للحجامة ، لتألُّمه بها ، ولا يكون كارهًا فِعْلَ الحجام ، ولا كارهًا للحجَّام ، بل ربما يتقلَّد منه مِنَّة ، فهذا أقلّ درجاته ، وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر ، ... ، وأرفعُ من هذا : أن لا يكون كارهًا للفقر ؛ بل يكون راضيًا به » اهـ.

وذلك لعِلْمِهِ أنَّ الله عز وجل هو الذي ابتلاهُ به ؛ فهو راض ببلاء الله عز وجل ، وقدره عليه .

قال ابن القيم رحمه الله في منزلة « الرضى »[3] :

« وقد أجمع العلماء على أنه مستحبّ ، مؤكد استحبابه ، واختلفوا في وجوبه على قولين .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يحكيهما على قولين لأصحاب أحمد ، وكان يذهب إلى القول باستحبابه .

---

(١) راجع ما سيأتي عن هذا الشأن في كتابنا هذا ـ إن شاء الله تعالى .

(٢) « الإحياء » للغزالي (٤/٢٩٦ ـ ط : دار الحديث) .

(٣) « مدارج السالكين » (٢/١٧١ ـ فما بعد) بتصرُّف .

قال : ولم يجئ الأمر به ، كما جاء الأمر بالصبر ؛ وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم ...

ومن أعظم أسباب حصول الرضى : أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه ؛ فإنه يوصله إلى مقام الرضى ولا بد .

قيل ليحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى ؟ فقال : إذا أقام نفسَه على أربعةِ أصولٍ فيما يعامل به ربه ، فيقول : إن أعطيتني قَبِلْتُ ، وإنْ مَنَعْتَنِي رَضِيتُ ، وإنْ تَرَكْتَنِي عبدتُ ، وإنْ دَعَوْتني أجبتُ .

وقال الجنيد : الرضى هو صحة العلم الواصل إلى القلب ، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أدَّاهُ إلى الرضى .

وليس من شرط الرضى ألاَّ يُحسّ بالألم والمكاره ...

والصواب : أنه لا تناقض بينهما ، وأنَّ وجود التألُّم وكراهة النَّفْس له لا ينافي الرضى ، كرضى المريض بشرب الدواء الكريه ، ورضى الصائم في اليوم الشديد الحرّ بما يناله من ألم الجوع والظمإ ، ورضى المجاهد بما يحصُل له في سبيل الله من ألم الجراح ، وغيرها ...

فطريق الرضى والمحبة : تُسَيِّرُ العبد وهو مستلقٍ على فراشه ، فيصبح أمام الرَّكب بمراحل .

وثمرةُ الرضى : الفرح والسرور بالربّ تبارك وتعالى .

ورأيتُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ في المنام ، وكأنّي ذكرتُ له شيئًا من أعمال القلوب ، وأخذت في تعظيمه ومنفعته ـ لا أذكره الآن ـ فقال : أما أنا فطريقتي : الفرح بالله ، والسرور به[1] ، أو نحو هذا من العبارة .

---

(١) وهذا من ثمرات الرضى، كما مرَّ ذلك قريبًا في كلام ابن القيم رحمه الله.

وهكذا كانت حاله في الدنيا ، يبدو ذلك على ظاهره ، وينادي به عليه حاله ...

وقال ذو النون : ثلاثة من أعلام الرضى : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء [1] .....

وقيل للحسين بن عليّ رضي الله عنهما : إنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه يقول : الفقر أحب إليَّ من الغنى ، والسقم أحب إليَّ من النصيحة ؟

فقال : رحم الله أبا ذر ! أما أنا فأقول : من اتَّكلَ على حُسْنِ اختيار الله له لم يتمَنَّ غير ما اختار الله له .

وقال الفضيل بن عياض لبشرٍ الحافي : الرضى أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأنَّ الراضي لا يتمنَّى فوق منزلته ...

وقيل : الرضى ارتفاع الجزع في أيِّ حكمٍ كان .

وقيل : رفع الاختيار .

وقيل : استقبال الأحكام بالفرح .

وقيل : سكون القلب تحت مجاري الأحكام .

وقيل : نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، وهو ترك السخط .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما : « أما بعد ؛ فإنَّ الخيرَ كله في الرضى ؛ فإن استطعتَ أن ترضى وإلاَّ فاصبر » .

وقال أبو علي الدقاق : الإنسان خزف ، وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحق تعالى .

وقال أبو عثمان الحيري : منذ أربعين سنة ما أقاضي الله في حالٍ

---

(١) يعني التسليم لله عز وجل فيما يختاره للعبد، والرضى باختياره سبحانه وتعالى، وترك المنازعة في ذلك، أو الاعتراض على قَدَرِهِ واختياره سبحانه وتعالى بالتصريح أو التلميح؛ لما في ذلك من سوء الأدب مع المولى سبحانه وتعالى.

فكرهتُه، وما نقلني إلى غيرِه فسخطتُه ...

فإنَّ الراضي الموافق تستوي عنده الحالات ـ من النعمة والبليَّةِ ـ في رضاه بحسن اختيار الله له .

وإنما تستوي النعمة والبليَّة عنده في الرضى بهما لوجوه :

أحدها : أنه مفوِّض ، والمفوِّض راض بكل ما اختاره له مَن فوَّض إليه ، ولا سيما إذا عَلِمَ كمال حكمته ورحمته ، ولطفه وحسن اختياره له .

الثاني : أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله ، ولا رادّ لحكمه ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فهو يعلم أنَّ كُلاًّ من البليَّةِ والنعمة بقضاءٍ سابقٍ ، وقدر حَتْم .

الثالث : أنه عبد محض ، والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن ؛ بل يتلقَّاها كلها بالرضى به وعنه .

الرابع : أنه محب ، والمحب الصادق : مَن رضي بما يعامله به حبيبه .

الخامس : أنه جاهل بعواقب الأمور ، وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه .

السادس : أنه جاهل ظالم ، وربه تعالى يريد مصلحته ، ويسوق إليه أسبابها . ومن أعظم أسبابها : ما يكرهه العبد ، فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب .

قال الله تعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة/٢١٦] .

وقال تعالى : ﴿ **فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء/١٩] .

السابع : أنه مسلم ؛ والمسلم مَنْ قد سَلَّم نفسه لله ، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه . ولم يسخط ذلك .

الثامن : أنه عارف بربه ، حسن الظن به ، لا يتهمه فيما يُجريه عليه من أقضيته وأقداره ، فحسنُ ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده ، ورضاه بما يختاره له سيده سبحانه .

التاسع : أنه يعلم أن حَظَّه من المقدور ما يتلقاه به من رضًى وسخط ، فلا بد له منه . فإن رضي فله الرضى ، وإن سَخِط فله السخط .

العاشر : علمه بأنه إذا رضي انقلب في حقه نعمة ومنحة ، وخَفَّ عليه حمله ، وأعين عليه، وإذا سخطه تضاعف عليه ثقله وكَلُّه ، ولم يزدد إلا شدة؛ فلو أن السخط يُجدِي عليه شيئًا ؛ لكان له فيه راحة أنفع له من الرضى به .

ونكتة المسألة : إيمانه بأن قضاء الرب تعالى خير له ؛ كما قال النبي ﷺ: « **والذي نفسي بيده ، لا يقضي اللَّه للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له ؛ إن أصابته سَرَّاء شكر ، فكان خيرًا له ؛ وإن أصابته ضراء صَبِر ، فكان خيرًا له؛ وليس ذلك إلا للمؤمن** » .

الحادي عشر : أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه ، ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب؛ لكان أبعد شيء عن عبودية ربه .

فلا تتم له عبوديته ـ من الصبر ، والتوكل ، والرضى ، والتضرع ، والافتقار ، والذل ، والخضوع ، وغيرها ـ إلا بجريان القدر له بما يكره ، وليس الشأن في الرضى بالقضاء الملائم للطبيعة ؛ إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع .

الثاني عشر : أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضى ربه عنه ؛ فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق : رضي ربه عنه بالقليل من العمل ، وإذا رضي عنه في جميع الحالات ، واستوت عنده ؛ وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترضّاه وتَملَّقه .

الثالث عشر : أن يعلم أن أعظم راحته ، وسروره ونعيمه : في الرضى عن ربه - تعالى وتقدس - في جميع الحالات ، فإن الرضى باب الله الأعظم ، ومستراح العارفين ، وجنة الدنيا ؛ فجدير بمن نَصَح نفسه أن تشتد رغبته فيه ، وأن لا يستبدل بغيره منه .

الرابع عشر : أن السخط باب الهَمِّ والغَمِّ والحَزَن ، وشتات القلب ، وكَسف البال ، وسوء الحال ، والظن بالله خلاف ما هو أهله ، والرضى يخلِّصه من ذلك كله . ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة .

الخامس عشر : أن الرضى يوجب له الطمأنينة ، وبَرْد القلب ، وسكونَه وقراره . والسخط يوجب اضطراب قلبه ، وريبته وانزعاجه ، وعدم قراره .

السادس عشر : أن الرضى يُنزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة : استقام ، وصلحت أحواله ، وصلح باله ، والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته ، وإذا ترحَّلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن، والدَّعَة، والراحة ، وطيب العيش ؛ فمن أعظم نعم الله على عبده : تَنَزل السكينة عليه ؛ ومن أعظم أسبابها : الرضى عنه في جميع الحالات .

السابع عشر : أن الرضى يفتح له باب السلامة . فيجعل قلبه سليمًا نَقيًّا من الغش والدَّغَل والغِلِّ ، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم كذلك؛ وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضى ، وكلَّما كان العبد أشد رضى كان قبله أسلم، فالخَبَث والدغَل والغش : قرين السخط ، وسلامة القلب وبره ونصحه : قرين الرضى ، وكذلك الحسد : هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضى .

الثامن عشر : أن السخط يوجب تلون العبد ، وعدم ثباته مع الله ؛ فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه ، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وبما لا

يلائمه ، وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه ، فلا تثبت له قَدَم على العبودية ؛ فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات : استقرت قدمه في مقام العبودية ، فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضى .

التاسع عشر : أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه ، فقلَّ أن يَسْلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه ، وإن كان لا يشعر به ، فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً؛ فإن الرضى واليقين أخوان مصطحبان ، والشك والسخط قرينان .

العشرون : أن الرضى بالمقدور من سعادة ابن آدم ، وسخطه من شقاوته.

الحادي والعشرون : أن الرضى يوجب له أن لا يأسى على ما فاته ، ولا يفرح بما آتاه . وذلك من أفضل الإيمان .

أما عدم أساه على الفائت : فظاهر ؛ وأما عدم فرحه بما آتاه : فلأنه يعلم أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله ؛ فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة ولا بد ؟

الثاني والعشرون : أن من ملأ قلبه من الرضى بالقدر : ملأ الله صدره غِنًى وأمنًا وقناعة ، وفَرّغ قلبه لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، ومن فاته حظه من الرضى : امتلأ قلبه بضد ذلك ، واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه .

فالرضى يفرغ القلب لله ، والسخط يفرغ القلب من الله .

الثالث والعشرون : أن الرضى يثمر الشكر ، الذي هو من أعلى مقامات الإيمان ، بل هو حقيقة الإيمان . والسخط يثمر ضده ، وهو كفر النعم ، وربما أثمر له كفر المنعم ، فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات : أوجب له ذلك شكره ، فيكون من الراضين الشاكرين ، وإذا فاته الرضى : كان من

الساخطين . وسلك سبيل الكافرين .

الرابع والعشرون : أن الرضى ينفي عنه آفات الحرص والكلب على الدنيا؛ وذلك رأس كل خطيئة ، وأصل كل بلية ، وأساس كل رزية ، فرضاه عن ربه في جميع الحالات : ينفي عنه مادة هذه الآفات .

الخامس والعشرون : أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبًا عند السخط والشهوة ، فهناك يصطاده ؛ ولا سيما إذا استحكم سخطه ؛ فإنه يقول ما لا يرضي الرب ، ويفعل ما لا يرضيه، وينوي ما لا يرضيه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: « يَحْزَن القلب ، وتدمع العين ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب » فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر.

السادس والعشرونْ : أن الرضى هو اختيار ما اختاره الله لعبده ، والسخط كراهة ما اختاره الله له ، وهذا نوع محادة ، فلا يتخلص منه إلا بالرضى عن الله في جميع الحالات .

السابع والعشرون : أن الرضى يخرج الهوى من القلب ، فالراضي هواهُ تبع لمراد ربه منه . أعني المراد الذي يحبه ربه ويرضاه ، فلا يجتمع الرضى واتباع الهوى في القلب أبدًا ، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا ؛ فهو للغالب عليه منهما .

الثامن والعشرون : أن الرضى عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضى الله عنه ـ كما تقدم بيانه في الرضى به ـ فإن الجزاء من جنس العمل .

التاسع والعشرون : أن الرضى بالقضاء أشق شيء على النفس ؛ بل هو ذبحها في الحقيقة ، فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها . ولا تصير مطمئنة قط حتى ترضى بالقضاء ، فحينئذ تستحق أن يقال لها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ

الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

الثلاثون : أن الراضي متلق أوامر ربه - الدينية والقدرية - بالانشراح والتسليم ، وطيب النفس ، والاستسلام ، والساخط يتلقاها بضد ذلك؛ إلا ما وافق طبعه ، وإرادته منها .

وقد بينا أن الرضى بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه ، فإنه لم يرض به لكون الله قدره وقضاه وأمر به ؛ وإنما رضي به لموافقته هواه وطبعه . فهو إنما رضي لنفسه وعن نفسه ، لا بربه ، ولا عن ربه .

الحادي والثلاثون : أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضى ؛ والطاعات كلها من الرضى ، وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه ، وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي .

الثاني والثلاثون : أن عدم الرضى يفتح باب البدعة ، والرضى يغلق عنه ذلك الباب ، ولو تأملت بدع الروافض ، والنواصب ، والخوارج ؛ لرأيتها ناشئة من عدم الرضى بالحكم الكوني ، أو الديني ، أو كليهما .

الثالث والثلاثون : أن الرضى مَعْقِد نظام الدين ظاهره وباطنه ؛ فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع :

فتنقسم قسمين : دينية ، وكونية ؛ وهي مأمورات ، ومنهيات ، ومباحات ، ونِعَمٌ مُلِذَّةٌ ، وبلايا مؤلمة .

فإذا استعمل العبد الرضى في ذلك كله ؛ فقد أخذ بالحظ الوافر من الإسلام ، وفاز بالقدْح المعلَّى .

الرابع والثلاثون : أن الرضى يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في

أحكامه وأقضيته ؛ فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد، وأصل مخاصمة إبليس لربه : من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية .

الخامس والثلاثون : أن جميع ما في الكون أوجبته مشيئة الله ، وحكمته، وملكه ، فهو موجب أسمائه وصفاته . فمن لم يرض بما رضي به ربه ، لم يرض بأسمائه وصفاته ؛ فلم يرض به ربًا .

السادس والثلاثون : أن كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه ؛ لا يخلو : إما أن يكون عقوبة على الذنب ، فهو دواء لمرض ، لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى به المرض إلى الهلاك، أو يكون سببًا لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه ، فالمكروه ينقطع ويتلاشى، وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع ؛ فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضى عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدره.

السابع والثلاثون : أن حُكم الرب تعالى ماض في عبده ، وقضاؤه عدل فيه ؛ كما في الحديث « **ماضٍ فيَّ حُكْمك ، عَدْلٌ فيَّ قَضَاؤُكَ** »، ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور .

وقوله « **عدل فيَّ قَضَاؤُك** » يعم قضاء الذنب ، وقضاء أثره وعقوبته ، فإن الأمرين من قضائه عز وجل ، وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب ، وفي قضائه بعقوبته .

أما عدله في العقوبة : فظاهر ، وأما عدله في قضائه بالذنب : فلأن الذنب عقوبة على غفلته عن ربه ؛ وإعراض قلبه عنه ، فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليه ، ونقص إخلاصه : استحق أن يُضْرَب بهذه العقوبة ؛ لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب . والعقوبات واردة عليها من كل جهة ، وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى وذكره ؛ يستحيل صدور الذنب ؛ كما قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ**

مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف /٢٤] .

فإن قلت : قضاؤه على عبده بإعراضه عنه ، ونسيانه إياه ، وعدم إخلاصه : عقوبة على ماذا ؟

قلت : هذا طبع النفس وشأنها ، فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلى بينه وبين نفسه وطبعه وهواه ، وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان ، وعدم الإخلاص واتباع الهوى ، وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام ، وفوات الخيرات واللذات ، كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها[1] .

---

(١) علَّق الشيخ الفقي رحمه الله هنا بقوله : تدبر قول الله تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس/ ٧ - ١٠]، وقوله : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة / ١٤ - ١٥] وقوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان /٢ - ٣] وقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك / ١٠ - ١١] وقوله : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك/ ٢٢ - ٢٣] وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ - إلى قوله - لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف / ١٧٢ - ١٧٩] وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة/١٢- ١٤] فإنك إذا تلوت هذه الآيات وغيرها - في هذا الموضوع الخطير - حق التلاوة ، وتدبرتها حق التدبر - سليم القلب من التقليد الأعمى ، والتأثر بأي مؤثر ، إلا الرغبة الصادقة في فهم مراد الله ، لتهدى به إلى سبيل الرشاد - إذن لفهمت أن الجميع عبيد لله رب العالمين . وأنه ربهم يربيهم جميعًا بكل ما آتاهم من النعم والآيات في أنفسهم وفي الآفاق . فمن شكر وأحسن الانتفاع ووضع النعم في مواضعها : زاده الله الشكور هدى ونعمة . ومن كفر فلا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتًا . ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارًا » اهـ.

فإن قلت : فهلا خلقه على غير تلك الصفة ؟

قلت : هذا سؤال فاسد ، ومضمونه : هلا خلقه ملكًا لا إنسانًا .

فإن قلت : فهلا أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه ، وظلمة طبعه ؟

قلت : مضمون هذا السؤال : هلا سوى بين جميع خلقه ؟ ولم خلق المتضادات والمختلفات ؟ وهذا من أفسد الأسئلة . وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكه لخلق ذلك .

الثامن والثلاثون : أن عدم الرضى إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده ، وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه ، فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه : فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضره .

التاسع والثلاثون : أن الرضى من أعمال القلوب ، نظير الجهاد من أعمال الجوارح ، فإن كل واحد منهما ذِرْوة سَنام الإيمان .

قال أبو الدرداء « ذروة سنام الإيمان : الصبر للحكم ، والرضى بالقدر » .

الأربعون : أن أول معصية عُصِي الله بها في هذا العالم : إنما نشأت من عدم الرضى ؛ فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كونًا ، من تفضيل آدم وتكريمه ؛ ولا بحكمه الديني ، من أمره بالسجود لآدم ، وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة ؛ حتى ضَمَّ إليه الأكل من شجرة الحِمَى ، ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضى .

الحادي والأربعون : أن الراضي واقف مع اختيار الله له ، معرض عن اختياره لنفسه ، وهذا من قوة معرفته بربه تعالى ، ومعرفته بنفسه .

وقد اجتمع وهيب بن الورد ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط؛ فقال الثوري : قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم ، وأما اليوم : فوددت أني ميت .

فقال له يوسف بن أسباط : ولم ؟ فقال : لما أتخوف من الفتنة .

فقال يوسف : لكني لا أكره طول البقاء .

فقال الثوري : ولم تكره الموت ؟

قال : لعلي أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا .

فقيل لوهيب : أي شيء تقول أنت ؟

فقال : أنا لا أختار شيئًا ؛ أحب ذلك إليَّ أحبه إلى الله .

فَقَبَّلَ الثوري بين عينيه، وقال : روحانية ورب الكعبة .

فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت ، وقف مع اختيار الله له منهما . وقد كان وهيب ـ رحمه الله ـ له المقام العالي من الرضى وغيره.

الثاني والأربعون : أن يعلم أن منع الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن المحب عطاء ، وابتلاءه إياه: عافية .

قال سفيان الثوري : منعه عطاء . وذلك : أنه لم يمنع عن بخل ولا عُدْم. وإنما نظر في خير عبده المؤمن فمنعه اختياراً وحسن نظر .

وهذا كما قال ؛ فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، ساءه ذلك القضاء أوسره ، فقضاؤه لعبده المؤمن المنع: عطاء؛ وإن كان في صورة المنع ، ونعمة ؛ وإن كانت في صورة محنة ، وبلاؤه: عافية ؛ وإن كان في صورة بلية ، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما

التذ به في العاجل ، وكان ملائمًا لطبعه ، ولو رزق من المعرفة حظًا وافرًا لَعَدَّ المنع نعمة ، والبلاء رحمة ، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية ، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى ، وكان في حال القلة أعظم شكرًا من حال الكثرة .

وهذه كانت حال السلف .

فالعاقل الراضي : من يعد البلاء عافية ، والمنع نعمة ، والفقر غنى .

فالراضي : هو الذي يعد نعم الله عليه فيما يكرهه ، أكثر وأعظم من نعمه عليه فيما يحبه ؛ كما قال بعض العارفين : يا ابن آدم نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب . وقد قال تعالى : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ** ﴾ [البقرة/ ٢١٦] .

وقد قال بعض العارفين : ارض عن الله في جميع ما يفعله بك ؛ فإنه ما منعك إلا ليعطيك ، ولا ابتلاك إلا ليعافيك ، ولا أمرضك إلا ليشفيك ، ولا أماتك إلا ليحييك ، فإياك أن تفارق الرضى عنه طرفة عين ، فتسقط من عينه .

الثالث والأربعون : أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء ، والمُظهِرَ لكل شيء ، والمالك لكل شيء ، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار ، وليس للعبد أن يختار عليه ، وليس لأحد معه اختيار ، ولا يشرك في حكمه أحدًا ، والعبد لم يكن شيئًا مذكورًا ، فهو سبحانه الذي اختار وجوده ، واختار أن يكون كما قدره له وقضاه : من عافية وبلاء ، وغنى وفقر ، وعز وذل ، ونباهة وخمول ، فكما تفرد سبحانه بالخلق ، تفرد بالاختيار والتدبير ـ وليس للعبد شيء من ذلك ـ فإن الأمر كله لله . وقد قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ [آل عمران /١٢٧] .

فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله ، وليس له من الأمر قليل ولا كثير ؛ لم يكن له معول ـ بعد ذلك ـ غير الرضى بمواقع الأقدار ، وما يجري به من ربه الاختيار .

الرابع والأربعون : أن رضى الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها ؛ لأن الرضى صفة الله والجنة خلقه ، قال الله تعالى : ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ بعد قوله: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة : ٧٢].

وهذا الرضى جزاء على رضاهم عنه في الدنيا ، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء ، كان سببه أفضل الأعمال .

الخامس والأربعون : أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات : لم يتخير عليه المسائل ، وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك ، وجعل ذكره في محل سؤاله ؛ بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره ، وبلوغ رضاه . فهذا يُعْطَى أفضل ما يعطاه سائل ؛ فإن السائلين سألوه ، فأعطاهم الفضل الذي سألوه ، والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم ، ولا يمنع الرضى سؤاله أسباب الرضى ؛ بل أصحابه مُلِحُّون في سؤاله ذلك .

السادس والأربعون : أن النبي ﷺ كان يندب إلى أعلى المقامات ، فإن عجز العبد عنه : حطه إلى المقام الوسط ، كما قال : « **اعبد اللَّه كأنك تراه** » فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم قال « **فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » فحطه عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني ، وهو العلم باطلاع الله عليه ورؤيته له ، ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء ، فرفعه إلى أعلى المقامات ، ثم رده إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى ، فالأول : مقام الإحسان ، والذي حطَّه إليه : مقام الإيمان ، وليس دون ذلك إلا مقام الخسران.....

الثامن والأربعون : أن الرضى آخذ بزمام مقامات الدين كلها . وهو روحها وحياتها ؛ فإنه روح التوكل وحقيقته ، وروح اليقين ، وروح المحبة ، وصحة المحب ، ودليل صدق المحبة ، وروح الشكر ودليله .

قال الربيع بن أنس : علامة حب الله : كثرة ذكره ؛ فإنك لا تحب شيئًا إلا أكثرت من ذكره . وعلامة الدين : الإخلاص لله في السر والعلانية . وعلامة الشكر : الرضى بقدَر الله والتسليم لقضائه .....

فصار الرضى كالروح لهذه المقامات ، والأساس الذي تنبني عليه . ولا يصح شيء منها بدونه ألبتة ، والله أعلم .

التاسع والأربعون : أن الرضى يقوم مقام كثير من التعبدات التي تشق على البدن . فيكون رضاه أسهل عليه ، وألذ له ، وأرفع في درجته .....

وقال بعض العارفين : من يتوكل على الله ، ويرض بقدر الله ، فقد أقام الإيمان ، وفرَّغَ يده ورجليه لكسب الخير ، وأقام الأخلاق الصالحة التي تُصْلِح للعبد أمره .

الخمسون : أن الرضى يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس ، فإن حسن الخلق من الرضى ، وسوء الخلق من السخط . وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم ، وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

الحادي والخمسون : أن الرضى يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور ، وطيبَ النفس وسكونها في كل حال ، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهلع من أمور الدنيا ، وبرد القناعة ، واغتباط العبد بقَسْمه من ربه ، وفرحه بقيام مولاه عليه ، واستسلامه لمولاه في كل شيء ، ورضاه منه بما يجريه عليه ، وتسليمه له الأحكام والقضايا ، واعتقاد حسن تدبيره ، وكمال حكمته ، ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته ؛ ولهذا سمى بعض العارفين الرضى : حسن الخلق مع الله ، فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه ، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خُلقه ، فلا يقول : ما أحوج الناس إلى مطر ؟ ولا يقول : هذا يوم شديد الحر ، أو شديد البرد ، ولا

يقول : الفقر بلاء ، والعيال هَمٌّ وغم ، ولا يسمي شيئًا قضاه الله وقَدَّره باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى ؛ فإن هذا كله ينافي رضاه .....

وقال ابن أبي الحواري ـ أو قيل له ـ: إن فلانًا قال : وددت أن الليل أطول مما هو ؟ فقال : قد أحسن ، وقد أساء ؛ أحسن حيث تمنى طوله للعبادة والمناجاة ، وأساء حيث تمنى ما لم يرده الله ، وأحب ما لم يحبه الله .....

وقيل : أكثر الناس هَمًا بالدنيا أكثرهم هَمًا في الآخرة . وأقلهمهَمًا بالدنيا أقلهم هَمًا في الآخرة .

فالإيمان بالقدر ، والرضى به : يذهب عن العبد الهم والغم والحزن ...

الثاني والخمسون : أن أفضل الأحوال : الرغبة في الله ولوازمها ، وذلك لايتم إلا باليقين ، والرضى عن الله ؛ ولهذا قال سهل : حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضى ، وحظهم من الرضى على قدر رغبتهم في الله .

الثالث والخمسون : أن الرضى يخلصه من عيب ما لم يعبه الله ، ومن ذم ما لم يذمه الله، فإن العبد إذا لم يرضى بالشيء عابه بأنواع المعايب، وذمه بأنواع المذام، وذلك منه قلة حياء من الله، وذم لما ليس له ذنب ، وعيب لخلقه. وذلك يسقط العبد من عين ربه ، ولو أن رجلاً صنع لك طعامًا وقدمه إليك فعبته وذممته؛ لكنت متعرضًا لمقته وإهانته، ومستدعيًا منه أن يقطع ذلك عنك.

وقد قال بعض العارفين : إن ذم المصنوع وعيبه ـ إذا لم يذمه صانعه ـ غيبة له وقدح فيه .

الرابع والخمسون : أن النبي ﷺ سأل الرضى بالقضاء ؛ كما في «المسند» و«السنن»: « **اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحْيني خيرًا لي . وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي . وأسألك خشيتهك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى . وأسألك القصد في الفقر والغنى . وأسألك نعيمًا لا ينفد . وأسألك قرة عين لا تنقطع . وأسألك الرضى بعد**

القضاء. وأسألك برد العيش بعد الموت . وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم. وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين » .

فسمعت شيخ ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : سأله الرضى بعد القضاء ؛ لأنه حينئذ تبين حقيقة الرضى ، وأما الرضا قبله : فإنه هو عزم أنه يرضى إذا أصابه ؛ وإنما يتحقق الرضا بعده .

الخامس والخمسون : إن الرضى بالقدر يخلص العبد من أن يرضي الناس بسخط الله . وأن يذمهم على ما لم يؤتيه الله . وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله . فيكون ظالمًا لهم في الأول - وهو رضاهم وذمهم - مشركًا بهم في الثاني - وهو حمدهم - فإذا رضى بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم، فخلصه الرضى من ذلك كله .

السادس والخمسون : أن الرضى يفرغ قلب العبد ، ويقلل همه وغمه ، فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها ، كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعي - وكان من العلماء - قال : قلت لعابد : أوصني ؛ قال : ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك ، فهو أحرى أن يُفَرِّغ قلبك ، ويقلل همك ، وإياك أن تسخط ذلك ، فيَحِلَّ بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به . فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم .

وقال بعض السلف : ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيب من العيش؛ فإن التدبير والاختيار يكدر على الناس عيشهم .

وقال أبو العباس بن عطاء : الفرح في تدبير الله لنا ، والشقاء كله في تدبيرنا .

وقال سفيان بن عيينة : من لم يصلح على تقدير الله : لم يصلح على تقدير نفسه .

وقال أبو العباس الطوسي : من ترك التدبير عاش في راحة .

وقال بعضهم : لا تجد السلامة حتى تكون في التدبير كأهل القبور .

وقال : الرضاء ترك الخلاف على الرب فيما يجريه على العبد .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: « لقد تركتني هؤلاء الدعوات ، وما لي في شيء من الأمور كلها أرَب ، إلا في مواقع قدر الله ؛ وكان كثيراً ما يدعو : اللهم رضني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرتَه . ولا تأخير شيء عجلته » .

وقال : ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل .

وقال شعبة : قال يونس بن عبيد : ما تمنيت شيئًا قط .

وقال الفضيل بن عياض : الراضي لا يتمنى فوق منزلته .....

وقال بعض العارفين : أصل العبادة ثلاثة : لا ترد من أحكامه شيئًا ، ولا تسأل غيره حاجة ، ولا تدخر عنه شيئًا .

وسئل ابن شمعون عن الرضى ؟ فقال : أن ترضى به مدبراً ومختاراً ، وترضى عنه قاسمًا ومعطيًا ومانعًا ، وترضاه إلهًا ومعبودًا وربًّا .

وقال بعض العارفين : الرضى ترك الاختيار ، وسرور القلب بمرِّ القضاء ، وإسقاط التدبير من النفس ، حتى يحكم الله لها أو عليها .

وقيل : الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا ، ولم يتأسف عليها .

ولله در القائل :

العبدُ ذُو ضَجَرٍ والربُّ ذُو قَدَرٍ والـدَّهْرُ ذو دُوَلٍ والرِّزْقُ مَقْسُومُ

والخيرُ أَجْمَع فيما اختَارَ خالقُنَا وفي اختيارِ ســـواهُ اللَّوْمُ والشومُ

السابع والخمسون : أنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لوم المقادير ، إما

بقالبه ، وإما بقلبه وحاله . ولوم المقادير لوم لمقَدِّرها وكذلك يقع في لوم الخلق . واللهُ والناسُ يلومونه ، فلا يزال لائمًا ملومًا ، وهذا منافٍ للعبودية .

قال أنس رضي الله عنه: « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين . فما قال لي لشيء فعلته : **لم فعلتَه** ؟ ولا لشيء لم أفعله : **ألا فعلته** ؟ ولا قال لي لشيء كان : **ليته لم يكن** ، ولا لشيء لم يكن : **ليته كان** . وكان بعض أهله إذا لامني يقول : دعوه ؛ **فلو قُضِي شيء لكان** » .

وقوله : « **لو قضي شيء لكان** » يتناول أمرين :

أحدهما : مالم يوجد من مراد العبد . والثاني : ما وجد مما يكره ، وهو يتناول فوات المحبوب ، وحصول المكروه ؛ فلو قضي الأول لكان ، ولو قضي خلاف الآخر لكان . فإذا استوت الحالتان بالنسبة إلى القضاء ؛ فعبودية العبد : أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلى رضاه ، وهذا موجب العبودية ومقتضاها؛ يوضحه :

الثامن والخمسون : أنه إذا استوى الأمران بالنسبة إلى رضى الرب تعالى. فهذا رضيه لعبده فقدره ، وهذا لم يرضه له فلم يقدره ؛ فكمال الموافقة: أن يستويا بالنسبة إلى العبد . فيرضى ما رضيه له ربه في الحالين .

التاسع والخمسون : أن الله تعالى نهى عن التقدم بين يديه ويدي رسوله في حكمه الديني الشرعي ، وذلك عبودية هذا الأمر ، فعبودية أمره الكوني القدري : أن لا يتقدم بين يديه؛ إلا حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك ؛ فيكون التقدم أيضًا بأمره الكوني والديني ، فإذا كان فرضُه الصبر أو ندبه ، أو فرضه الرضي حتى ترك ذلك : فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره .

الستون : أن المحبة والإخلاص والإنابة : لا تقوم إلا على ساق الرضى فالمحب راض عن حبيبه في كل حالة .....

وقال بعض العارفين : ذنب أذنبته ؛ أنا أبكي عليه ثلاثين سنة . قيل : وما هو ؟ قال : قلت لشيء قضاه الله : ليته لم يقضه ، أو ليته لم يكن .

وقال بعض السلف : لو قُرض لحمي بالمقاريض كان أحب إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله : ليته لم يقضه .....

الحادي والستون : أن أعمال الجوارح تضاعَف إلى حد معلوم محسوب، وأما أعمال القلوب : فلا ينتهي تضعيفها ؛ وذلك لأن أعمال الجوارح : لها حَدٌّ تنتهي إليه ، وتقف عنده ، فيكون جزاؤها بحسب حدها ، وأما أعمال القلوب: فهي دائمة متصلة ، وإن توارَى شهود العبد لها .

مثاله : أن المحبة والرضى حال المحب الراضي ، لا تفارقه أصلاً ، وإن توارى حكمها ، فصاحبها في مزيد متصل ، فمزيد المحب الراضي : متصل بداوم هذه الحال له ، فهو في مزيد، ولو فَترت جوارحه ، بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما، ويبلغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيده في حال نومه أكثر من مزيد كثير من أهل القيام ، وأكله أكثر من مزيد كثير من أهل الصيام والجوع.

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله ، وقيام غافل عن الله ؛ فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب ، والهمم والعزائم ، لا إلى صور الأعمال ، وقيمة العبد : همته وإرادته ، فمن لا يرضيه غير الله ـ ولو أعطي الدنيا بحذافيرها ـ له شأن، ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن ؛ وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة . وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحظوظ أكثر وأشق ؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » انتهى كلام ابن القيم رحمه الله.

* * *

فصل
في أدب الفقير في ظاهره

قال الغزالي رحمه الله[1] :

« **وأما أدب ظاهره** : أن يُظهر التعفُّف والتجمُّلَ ، ولا يُظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ، ويستر أنه يستره ..... قال تعالى : ﴿ **يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ** ﴾ [البقرة / ٢٧٣] .

وقال سفيان : أفضل الأعمال التجمّل عند المحنة .

وقال بعضهم : سترُ الفقرِ من كنوز البرّ .

وأما في الأعمال ؛ فأدبه : فأنْ لا يتواضع لغنيٍّ لأجلِ غناه » اهـ

ولا ينظر إلى ما في أيديهم؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [طه / ١٣١ - ١٣٢] .

وقال سبحانه : ﴿ **لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الحجر / ٨٨] .

وقال عز وجل: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ [الكهف/ ٢٨] .

فإذا رأيتَ من نفسك ميلاً إلى أموالهم ، أو حسداً لهم ، أو رغبة فيما

---

(١) « الإحياء » له (٤/٢٩٦ - ط : دار الحديث) .

عندهم فأربأ بنفسك عن مخالطتهم ، وليسعك بيتك ، وابْك على خطيئتك.

فإنْ أمنت من ذلك كله ، فلا بأس بمخالطتهم ، والتودُّد إليهم ، مع المراقبة الدائمة للنَّفْس؛ خشية تسرُّب الحسد أو البغي أو الميل والهوى إليها .

ومع ذلك ؛ فإذا جاءَك شيءٌ من المال مِن غَيْرِ مسألةٍ فلا بأسَ به ، وقد وردَ ذلك صريحًا في حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه .

فعَنْ عبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما قالَ : « سمعتُ عمر يقول : «كانَ رسُولُ الله ﷺ يُعْطِينِي العَطاءَ ؛ فأقولُ : أعطِهِ مَنْ هو أفقرُ إليه مِنِّي ، فقال : **خُذْهُ ؛ إذا جاءك من هذا المالِ شيءٌ وأنت غيرُ مشرف ولا سائلٍ فخذه ، وما لا فلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ** » اهـ

قال الغزالي رحمه الله[1] :

« **وأما أدبه في أفعاله** : فأن لا يفتر بسببِ الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بَذْل قليل ما يفضل عنه ، فإن ذلك جهد المقلّ ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنًى » اهـ

وقد قال النبيُّ ﷺ[2] : « **يا نساءَ المسلماتِ لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لجارتها ولو فِرْسِنَ شَاةٍ** » .

قال ابنُ حجرٍ رحمه الله[3] : « (فِرْسِن) بكسر الفاء والمهملة بينهما راء ساكنة وآخره نون ؛ هو عُظَيمٌ قليل اللحم ، وهو للبعير موضع الحافر للفرس ، ويُطلق على الشاة مجازًا ، ونونه زائدة ، وقيل : أصلية .

---

(١) السابق (٤/٢٩٧) .

(٢) رواه البخاري (٢٥٦٦) ، ومسلم (١٠٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) « فتح الباري » له (٥/١٩٨) .

وأشير بذلك إلى المبالغة في إهداء الشيء اليسير وقبوله لا إلى حقيقة الفِرْسِن ؛ لأنَّه لم تجر العادة بإهدائه ؛ أي : لا تمنع جارة من الهدية لجارتها الموجود عندها لاستقلاله ، بل ينبغي أن تجودَ لها بما تيسَّرَ وإن كان قليلاً ، فهو خير من العدم ، وذكر الفِرْسِن على سبيل المبالغة ، ويحتمل أن يكون النهي إنما وقع للمُهْدَى إليها ، وأنها لا تحتقر ما يُهدَى إليها ولو كان قليلاً ، وحَمْلُه على الأعمِّ من ذلك أولَى »

قال ابنُ حجرٍ رحمه الله[1] : « وفي الحديث : الحض على التهادي ولو باليسير ؛ لأنَّ الكثير قد لا يتيسر كل وقت ، وإذا تَواصَلَ اليسير صار كثيرًا ، وفيه استحباب المودَّة وإسقاط التكلُّف » اهـ

فصل

الحث على مجانبة المسألة وكراهيتها

قال ابنُ حبانٍ رحمه الله تعالى[2] :

« الواجبُ على العاقلِ مجانبةُ المسألةِ على الأحوالِ كلها ، ولزوم تركِ التعرُّضِ ؛ لأنَّ الإفكارِ في العزمِ على السؤالِ يورثُ المرءَ مهانة في نفسه ، ويَحطُّه رَتْوة[3] عن مرتبتهِ ، وتركُ العزم على الإفكارِ في السؤالِ يُورثُ المرءَ عزًّا في نفسهِ ، ويرفعهُ درجةً عن مرتبتهِ .

قال موسى بنُ طريفٍ : إنَّ الحاجةَ تعرضُ لي إلى الرجلِ ، فيُخرج عِزِّي

(١) السابق (٥/١٩٨) .

(٢) « روضة العقلاء » لابن حبان (ص١٤٥ ـ فما بعد) .

وقد أسقطتُ أسانيد ابن حبان التي أوردها، واختصرتُ شيئًا من كلامه فلم أورده.

وراجع : « مدارج السالكين » لابن القيم رحمه الله (٢/٢٣١ ـ ٢٣٨/ تحقيق: الشيخ الفقي رحمه الله » .

(٣) الرتوة : الخطوة الواسعة نحو القفز بشدة .

من قلبي قطعَ الحاجة من ناحيتهِ ، فيرجع عِزّى إلى قلبي .

وأنشدني الكريزي، قال : أنشدنا الحسنُ بنُ أحمد لعلي بنِ الجهمِ :

هِي النَّفْسُ ، مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ ... وَلِلدَّهْرِ أَيَّـامٌ تَجُـــورُ وَتَعْـــدِلُ
وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الْجَمِيـــلِ جَمِيلَةٌ ... وَأَفْضَلُ أَخْــلاقِ الرِّجَالِ التَّفَضُّلُ
فَلاَ عَارَ إِنْ زَالَتْ عَـــنِ الحرِّ نِعْمَةٌ ... وَلَكِنَّ عَـــاراً أَنْ يَـــزُولَ التَّجَمُّلُ

عن عمر بن الخطابِ قال : « مَن سأَلَ الناسَ لِيُثْرِي مالهُ ، فإنَّما هو رَضفٌ(١) مِن النارِ يُلْقَمه ، فمَن شاءَ استقلَّ ، ومَن شاءَ استكثر » .

عن حكيمِ بنِ قيسِ بنِ عاصمٍ، عن أبيهِ، أنه أوصى بنيه عندَ موتهِ ، فقالَ : يا بني ! إيَّاكم ومسألة الناسِ ؛ فإنَّها آخرُ كسبِ الرجلِ .

قالَ أبو حاتم(٢) رضي الله عنه : العاقلُ لا يسألُ الناسَ شيئًا فيردوه ، ولا يُلحِف في المسألةِ فيحرموه ، ويلزمُ التعففَ والتكرمَ ، ولا يطلبُ الأمرَ مدبراً ، ولا يتركه مُقبِلاً ؛ لأن فَوْت الحاجة خيرٌ من طلبها إلى غير أهلها ، وإن من يسأل غير المستحق حاجة حَطَّ لنفسه مرتبتين ، ورفع المسئول فوق قدره .

وقال سفيانُ بن عيينةَ : من يسأل نذلاً حاجة فقد رفعه عن قدره .

عن حاجب بن أبي علقمة العطاردي قال : سمعت أبي يقول : قال مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير لابن أخيه : يا بُنيَّ أخي ! إذا كانت لك حاجة إليّ فاكتب بها في رُقعة ، فإني أصون وجهك عن ذُلِّ السؤال .

قال أبو حاتم(٢) رضي الله عنه : أعظمُ المصائبِ سوء الخلق ، والمسألة من الناس والهمُّ بالسؤال نصف الهرم ، فكيف المباشرة بالسؤال ؟ ومن عَزَّت عليه

(١) الرضف : الحجارة المحماة بالنار .
(٢) وهو ابن حبان رحمه الله .

نفسه صغُرت الدنيا في عينيه ، ولا يَنْبُلُ الرجلُ حتى يَعِفَّ عما في أيدي الناس، ويتجاوز عما يكون منهم ، والسؤال من الإخوان مَلال ، ومن غيرهم ضِدُّ النَّوال .

وأنشدني الأبرش :

انْبُلْ بنفسِكَ أنْ تَكُـونَ حَريصـةً ... إنَّ الحريصَ إذا يُلِـحُّ يُهَـانُ
مَن يُكثِـرُ التَّسـآلَ مِـن إخْوَانه ... يَسْتثقِلُوه ، وحَظُّـه الحرمانُ

وكان أكْثَم بن صَيْفي يقول : السؤال - وإن قَلّ - أثمن من النوال ، وإن جلَّ .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : لا يجب للعاقل أن يبذل وجهه لمن يكرُم عليه قدره ، ويعظم عنده خطره ، فكيف بمن يهون عليه رده ، ولا يكرمُ عليه قدره ؟ وأبعد اللقاء الموت ، وأشدُّ منه الحاجة إلى الناسِ دون السؤالِ ، وأشدُّ منه التكلف بالسؤالِ ؛ لأن السؤالَ إذا كان بنجاحِ الحاجةِ مقرونًا لم يَخْلُ من أنْ يكونَ فيه ذل السؤالِ ، وإذا الحاجة لم تُقْضَ كان فيه ذلانِ موجودانِ : ذل السؤال ، وذل الردّ .

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي :

لا يحسُّ الصَّديقُ منـكَ بفقـرٍ ... لا ، وَلاَ وَالدٌ ، ولا مَـوْلُودُ
ذَاكَ ذُلٌّ إذَا سألـتَ بخيـلاً ... أوْ سَأَلْتَ الَّـذِي عَلَيْكَ يَجُودُ

وعن عبدِ الله قال : « إن في طلب الرجل الحاجة إلى أخيه فتنة ، إذا أعطاه حَمِد غير الذي أعطاه ، وإن منعه ذم غير الذي منعه » .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : لولم يكن في السؤال خَصلة تذمُّ إلا وجود

التذلل في النفس عند الاهتمام بالسؤال وإبدائه لكان الواجب على العاقل أن لو اضطره الأمر إلى أن يَسْتَفَّ الرمل ويَمُصَّ النَّوَى أن لا يتعرض للسؤال أبدًا ما وجد إليه سبيلاً ، فأما من دفعه الوقت إلى ذلك فسأل من يعلم أنه يقضي حاجته أو ذا سلطان لم يُحْرَج في فعله ذلك ، كما لم يحرج في القبول إذا أعطي من غير مسألة ، ومن استغنى بالله أغناه الله ، ومن تعزز بالله لم يفقره ، كما أن من اعتز بالعبيد أذله .

عن معمر قال : قال أبو معاوية ـ رجل من ولد كعب بن مالك ـ : « لقد رأيتني أنضح[1] أول النهار وأضرب آخر النهار على بطني بالمعوَل في المعدن ، قال : قلت : لقد لقيت مؤونة ، قال : أجل إنا طلبنا الدراهم من أيدي الرجال ومن الحجارة ، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا » اهـ

فصل

الحث على لزوم القناعة[2]

عن ابن عمر قال : « أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي ، فقال : **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » .

قال ابن حبان رحمه الله : « فقد أمر النبي ﷺ ابن عمر في هذا الخبر أن يكون في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل ؛ فكأنه أمره بالقناعة باليسير من الدنيا ؛ إذ الغريب وعابر السبيل لا يقصدان في الغيبة الإكثار من الثروة ، بل القناعة إليهما أقرب من الإكثار من الدنيا .

---

(١) الناضح : هو الذي يستقي من البئر بالدلو ، وأصله في البعير ، ويستعمل في الإنسان على تجوز . وفي نسخة « أنصح » بالصاد المهملة : أي ينصح الناس ويعظهم ، وهو بالضاد المعجمة أقرب إلى مقصد الكلام «الفقي».

(٢) « روضة العقلاء » (ص١٤٨ فما بعد) .

قال أكثم بن صيفي لابنه : يا بني ! من لم يأسَ على ما فاته ودعَ بدنه ، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه .

وأنشدني ابن زنجي البغدادي :

أقُول للنفسِ : صَبرًا عندَ نائبةٍ ... فعُسرُ يومكِ موصولٌ بيسرِ غدِ
مَا سرَّني أنَّ نفسِي غير قَانِعةٍ ... وأنَّ أرْزَاقَ هذا الخلقِ تحتَ يدي

عن ابن مسعود قال : « أربع قد فرغ منها : الخَلْق ، والخُلُق ، والرزق ، والأجل . وليس أحد بأكسب من أحد » .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : من أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطرًا: القناعة ، وليس شيء أروحَ للبدن من الرضا بالقضاء ، والثقة بالقسم ؛ ولو لم يكن في القناعة خصلة تحمد إلا الراحة وعدم الدخول في مواضع السوء ، لطلب الفضل لكان الواجب على العاقل أن لا يفارق القناعة على حالة من الأحوال .

قال محمد بن المنكدر : « القناعة مال لا ينفد » .

قال محمد بن حميد الأكَّاف :

تقنع بالكفافِ ، تعـش رَخيًّا ... ولا تبغِ الفضـولَ مـن الكفافِ
فَفِي خبزِ القَفَارِ[1] بغيـر أدمٍ ... وفي ماءِ الفراتِ غِنًـى وكـافِ
وفِي الثوبِ المرقـع ما يُغَطِّي ... به مِن كلِّ عُـري وانكشافِ
وكلُّ تَزيُّـنٍ بالمـرءِ زَيْـنٌ ... وأزْيَنُـه التَّزيُّـنُ بالعفـافِ

قال أبو حاتم رضي الله عنه : العاقلُ يعلمُ أنَّ الإنسانَ لم يوضع على قدر

(١) القفار : الذي لا إدام معه .

الأحظاء ، وأن من عدم القناعة لم يزده المال غنى ، فتمكن المرء بالمال القليل مع قلة الهمِّ أهنأ من الكثير ذي التَّبعة ، والعاقل ينتقم من الحرص بالقنوع ، كما ينتصر من العدو بالقصاص ؛ لأن السبب المانع رزقَ العاقل هو السببُ الجالب رزقَ الجاهل .

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش :

إذا المرء لم يقنع بعيش ، فإنه ... وإن كان ذا مال من الفقر مُوقَرُ
إذا كان فضل الناس يُغنيك بينهم ... فأنت بفضل الله أغنَى وأيسرُ

قال ابن المبارك : مروءة القناعة أفضل من مروءة الإعطاء .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : القناعة تكون بالقلب : فمن غنى قلبه غنيت يداه ، ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناه ، ومن قنع لم يَتسخَّط ، وعاش آمنًا مطمئنًا، ومن لم يقنع لم يكن له في الفوائت نهاية لرغبته ، والجِد والحرمان كأنهما يصطرعان بين العباد .

ولقد أحسن الذي يقول :

فَمَا كُل ما حازَ الفتى مِن تَلاَده ... بكَيْسٍ ، ولاَ مَا فاتَهُ بتَوانِ
فأجْمِلْ إذَا طَالَبْتَ أمْرًا فإنّه ... سَيَكْفِيكَهُ جَدَّانِ يصطرِعَانِ

عن المديني قال : كان يقال : مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة بالتعفف والغنى أكثر من مروءة الإعطاء .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : من نازعته نفسه إلى القنوع ، ثم حسد الناس على ما في أيديهم فليس ذلك لقناعة ولا لسخاوة ، بل لعجز وفشل ؛ فمثله كمثل حمار السوء الذي يَعرَج بخفَّة حمله ، ويحزن إذا رأى العلف

يُؤثَر به ذو القوة والحمل الثقيل ، فالقانع الكريم أراح قلبه وبدنه ، والشَّرِه اللئيم أتعب قلبه وجسمه ، والكرام أصبر نفوسًا ، واللئام أصبر أجسادًا .

وعن محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل / ٩٧] قال : القناعة » اهـ

فصل
الحث على لزوم التوكل على من ضمن الأرزاق[1]

قال ابن حبان رحمه الله : « الواجب على العاقل لزوم التوكل على من تكفَّل بالأرزاق ؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان ، وقرين التوحيد ، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر ووجود الراحة ، وما توكل أحد على الله جل وعلا من صحة قلبه حتى كان الله جلَّ وعلا بما تضمَّن من الكفالة أوثقَ عنده بما حوته يده إلا لم يَكِلْه الله إلى عباده ، وآتاه رزقَه من حيث لم يحتسب .

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي :

توكَّلْ على الرحمن في كلِّ حاجةٍ ... أرَدتَ ؛ فإنَّ اللهَ يقضِي ويَقْدرُ
متَى ما يُرِدْ ذُو العرشِ أمْرًا بعبدِهِ ... يُصِبْهُ ، وما للعبدِ ما يتخيّرُ
وقد يهلكُ الإنسانُ من وَجهِ أمْنِهِ ... ويَنْجُو بإذنِ اللهِ مِن حيثُ يحذرُ

عن أبي الدرداء قال : « إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله » .

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي؛ أنشدني محمد بن الحسين العَمِّي:

سَلِ الحاجاتِ من سيدٍ ... ليسَ له سترٌ ولا حَاجبُ
يُعطي عَطَاياهُ إذا شَاءَها ... من غيرِ تَوْقِيعٍ إلى كَاتبِ

(١) « روضة العقلاء » (ص١٥٣ ـ فما بعد) .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : العاقلُ يعلمُ أنَّ الأرزاقَ قد فُرغ منها وتضمنها العليُّ الوفي على أن يُوفرها على عباده في وقتِ حاجتهم إليها ، والاشتغالُ بالسَّعي لما تضمن وتكفل ليسَ من أخلاقِ أهلِ الحزم إلا مع انطواء صحةِ الضميرِ، على أنَّه وإن لم يسع في قصده أتاه رزقه من حيث لم يحتسب.

قال الفضيل بن عياض : ما اهتممت برزق قط.

قال أبو حاتم رضي الله عنه : الواجبُ على العاقلِ أنْ يعلمَ أنَّ السببَ الذي يدركُ به العاجزُ حاجتَه هو الذي يحول بينَ الحازمِ وبين مصادفتهِ ، فلا يجبُ أنْ يحزنَ العاقلُ لما يهوى وليسَ بكائنٍ ، ولا لما لا يهوى وهو لا محالة كائن ؛ فما كان من هذه الدنيا أتي المرءَ من غير تعب فيه ، وما كان عليه لم يدفعه بقوته ، ولا يُدْرِكُ بالطلب المحروم ، كما لا يُحْرَم بالقعود المرزوق .

ولقد أحسن الذي يقول :

يَنالُ الغنى مَنْ ليسَ يسعىَ إلى الغِنَى ... ويُحـرمُ مَنْ يسعَى لـهُ ويُدَاوِمُ
وما العجزُ يحرمُهُ ولا الحرصُ جالبٌ ... ومَا هُـو إلاَّ حظـوةٌ ومَقَاسِمُ

وأنشدني عمرو بن محمد الأنصاري أنشدنا الغلاب أنشدنا الغتبي :

ورزقُ الخلـقِ مَقْسُـومُ عليهم ... مَقَادِيرٌ يُقَـدِّرُهَا الجليـلُ
فَلاَ ذو المـالِ يُرْزَقُـه بعَقْـلٍ ... ولا بالمـالِ تُقْسَـمُ العقولُ

قال إسحاق بن موسى الأنصاري : سمعت يمان النجراني - وكان لا يدخر شيئًا - يقول : مررت براهب في قارعة فلاة من الأرض ، وأنا جائع ، فقلت : يا راهب ! هل عندك من فضل ؟ فأدلى إليّ زنبيلاً فيه فِلَقٌ من خبزٍ فأكلتُ منها ، ورميتُ إليه الباقي ، فقال : تزوده ، قلتُ : الذي

أطعمني في هذا الموضع ، وليس فيه إنسي ، يطعمني إذا جعتُ ولا يكون معي شيءٌ .

وأنشدني ابن زنجي البغدادي :

لا تتَّهِمْ ربَّكَ فيما قضَى ... وَهَوِّنِ الأمرَ ، وطبْ نَفْسَا
لِكُلِّ هَمٍّ فَرَجٌ عاجلٌ ... يأتي على المُصْبَح والمَمْسَى

قال أبو حاتم رضي الله عنه : التوكل هو قطع القلب عن العلائق ، برفض الخلائق ، وإضافته بالافتقار إلى محول الأحوال ، وقد يكون المرء موسراً في ذات الدنيا وهو متوكل صادق في توكله إذا كان العدم والوجود عنده سيِّين لا فرق عنده بينهما ، يشكر عند الوجود ، ويرضى عند العدم ، وقد يكون المرء لا يملك شيئًا من الدنيا بحيلة من الحيل ، وهو غير متوكلٍ إذا كانَ الوجودُ أحبَّ إليه من العدمِ ، فلا هو في العدمِ يرضى حالته ، ولا عندَ الوجودِ يشكرُ مرتبته .

وأنشدني الكريزي :

فلو كانتِ الدُّنيا تُنالُ بِفِطْنَةٍ ... وفضلِ عقولٍ نلتُ أعْلَى المراتبِ
ولكِنَّما الأرزاقُ حَظٌّ وقسْمَةٌ ... بملك مَليكٍ، لا بحيلةِ طالب» اهـ

فصل

ذكر الحث على لزوم الرضا بالشدائد والصَّبر عليها[1]

قال ابن حبان رحمه الله : « الواجب على العاقل أن يوقن أن الأشياء كلها قد فُرغ منها ، فمنها ما هو كائن لا محالة ، وما لا يكون فلا حيلة

(١) « روضة العقلاء » (ص١٥٧ - بما بعد).

للخلق في تكوينه، فإن دفعه الوقت إلى حال شدة يجب أن يتّزر بإزار له طرفان؛ أحدهما : الصبر ، والآخر : الرضا ، ليستوفي كمال الأجر لفعله ذلك، فكم من شدّة قد صعبُت وتعذر زوالها على العالم بأسره ، ثم فرج عنها السهل في أقل من لحظة .

عن أبي الحجاج الأزدي قال : سألنا سلمان : ما الإيمان بالقدر ؟ قال : إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وأنشدني الأبرش :

هَـــوّن عَلَى نَفْسِـكَ من سَعْيها   فليسَ مـــا قُـــدِّرَ مَرْدُودُ
وَارْضَ بحكـــمِ اللهِ فـــي خلقهِ   كُلُّ قَضَـــاءِ اللهِ مَحْمُـــودُ

وعن معمر قال : لما حاصر الحجاجُ ابنَ الزبير بمكة جعلت الحجارة تضرب الحائط ، فقيل له : لا نأمن عليك أن يصيبك منها حجر ، فقال ابن الزبير :

هَوِّن عليكَ ، فإنَّ الأمورَ   بكفِّ الإلـــهِ مَقَاديرهَا
فليـــسَ بآتيـــكَ مَنْهِيُّهَـــا   ولا قَاصرٍ عنـــكَ مَأمُورُهَا

وعن مسعر : أن رجلاً ركب البحر ، فكسر به ، فوقع في جزيرة من جزائر البحر ، فمكث فيها ثلاثًا لا يرى أحدًا ، ولا يأكل طعامًا ، ولا يشرب شرابًا ، فأيس من الحياة ، فتمثّل :

إذا شَابَ الغرابُ أتيـــتُ أهْلِي   وَصَارَ القارُ كَاللبنِ الحليبِ

فأجابه مجيب يقول :

عَسَى الكربُ الَّذي أمسيتَ فيه   يكُون وَرَاءَهُ فرجٌ قريبُ

فنظر ، فإذا سفينة في البحر ، فلوَّح لهم ، فأتوه ، فحملوه ، وأصاب معهم خيراً ، ورجع إلى أهله سالمًا .

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي :

تجري المقادِيرُ إنْ عُسْرًا وإن يُسْرًا   وللمقادير أسْبـــابٌ وأبـــوابُ
ما اشتد عسر، ولا انسدَّت مذاهبه   إلا تفتَّح من مَســروره بابُ

وأنشدني محمد بنُ عبدِ اللهِ بن زنجي البغدادي :

ألا رُبَّ عسرٍ قد أتى اليسرُ بعدَه   وغَمْرةِ كَرْب فُرِّجــت لِكَظيمِ
هو الدهرُ يومٌ، يومُ بؤسٍ وشدةٍ   ويـــومُ ســـرورٍ للفتــى نعيمِ

وعن علي بن عثام قال : رئي إبراهيم بن أدهم متنفط الرجلين(١) ، رافعهما على ميل ، وهو يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد/٣١].

وعن عبد الواحد بن زيد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، من أين أتى هذا الخلق ؟ قال : من قلة الرضا عن الله ، قلت : ومن أين أوتي قلة الرضا عن اللهِ ؟ قالَ : من قلة المعرفةِ باللهِ .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : يجب على العاقل إذا كان مبتدئًا أن يلزم

---

(١) قال الشيخ الفقي رحمه الله معلِّقًا على هذا الموضع : « نفطت ـ بكسر الفاء ـ رجله ، وتنفطت : تقرحت من كثرة المشي في الأرض الصعبة ، وهل كان تنفط رجلي ابن أدهم لكثرة جهد وسعي في سبيل الله : لجهاد عدو ، أو لطلب علم ، أو لصلة رحم ، أو لأمر بمعروف ، أو لنهي عن منكر ؟ إنما كان ذلك لشدة ما أجهد نفسه في الجبال والصحاري منقطعًا عن الناس ، وفارًا من الناس ومن الاختلاط بهم ، وقد أمر الله أولي العلم أن يعاشروا الناس ، لعلهم أن يقيموا من اعوجاجهم أو يصلحوا من فسادهم » اهـ

عند ورود الشدة عليه سلوك الصبر ، فإذا تمكن منه حينئذ يرتقي من درجة الصبر إلى درجة الرضا ، فإن لم يرزق صبرًا فليلزم التصبر ؛ لأنه أول مراتب الرضا ، ولو كان الصبر من الرجال لكان رجلاً كريمًا ؛ إذ هو بَذْر الخير ، وأساس الطاعات .

قال سفيان بن عيينة : سمعت رجلاً من أهل الكتاب أسلم ، قال : أوحى الله إلى داود : يا داود اصبر على المؤنة ، تأتك مني المعونة .

وأنشدني عبد الله بن الأحوص بن عمار القاضي :

صَبرًا جميلاً على ما نابَ مِن حَدَث ... والصبرُ ينفعُ أحيانًا إذَا صَبَرُوا
الصبرُ أفضلُ شَيءٍ تستعينُ بهِ ... على الزمانِ إذَا ما مَسَّكَ الضَرَرُ

وأنشدني إبراهيم بن محمد بن سهل ؛ أنشدني أبو يعلى الموصلي :

إني رأيتُ - وفي الأيام تجربةٌ - ... للصبرِ عَاقِبةً مَحْمُودَةَ الأَثَرِ
وقلَّ مَن جَدَّ في شيءٍ يحاوله ... فاستصحَبَ الصبرَ إلا فازَ بالظفرِ

وأنشدني عبدُ العزيزِ بنُ سليمان الأبرشُ :

أتاكَ الرَّوحُ والفرجُ القريبُ ... وساعدكَ القضاءُ ، فلا تخيبُ
صبرتَ ، فنلتَ عُقْبَى كلِّ خيرٍ ... كذاكَ لكلِّ مصطبرٍ عقيبُ

قال عبد الواحد بن زيد : ما أحببت أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا ، ولا أعلم درجةً أشرفَ ولا أرفعَ مِن الرضا ، وهو رأس المحبة .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : الصبر جماع الأمر ، ونظام الحزم ودِعَامة العقل ، وبذر الخير ، وحيلة من لا حيلة له وأولُ درجته الاهتمامُ ، ثم التيقظُ ، ثم التثبتُ ، ثم التصبرُ ثم الصبرُ ثم الرضا ، وهو النهاية

في الحالات .

عن ميمون بن مهران قال : « ما نالَ عبدٌ شيئًا من جسمِ الخيرِ من نبي أو غيره إلا بالصبر » .

وأنشدني المنتصرُ بنُ بلالٍ الأنصاريُّ :

فما شِدَّة يومًا ، وإنْ جَلَّ خطبُها — بِنَازِلــة إلاَّ سيتبعُهَـــا يُســـرُ
وإنْ عَسرت يومًا على المرءِ حاجةٌ — وضَاقَتْ عليه كانَ مفتاحَها الصبرُ

وأنشدني علي بن محمد البسامي :

تَعَزَّ ، فإنَّ الصبرَ بالحرِّ أجملُ — وليسَ على رَيْبِ الزمانِ مُعَوَّلُ
فإنْ تكنِ الأيامُ فينا تبدَّلت — بنُعْمَى وبؤسى، والحوادثُ تفعلُ
فمـــا ليَّنـــت منَّا قنـــاةً صليبـة — ولا ذلَّلتنا للـــذي ليسَ يَجمُلُ
ولكنْ رَحَلناهـــا نفوسًـــا كريمةً — تُحمَّلُ مـــا لا تستطيعُ فتحملُ

وأنشدنا عمرُو بنُ محمدٍ الأنصاريُّ ؛ أنشدنا الغلابيُّ :

إنِّي رأيتُ الخيرَ في الصبرِ مسرعًا — وحَسْبُكَ من صبرٍ تحوزُ به أجرًا
عليكَ بتقوى اللهِ في كلِّ حالةٍ — فإنَّك إنْ تفعلُ تُصيبْ بهِ ذُخْرًا

قال أبو حاتم رضي الله عنه : الصبر على ضروب ثلاثة : فالصبر عن المعاصي ، والصبر على الطاعات ، والصبر عند الشدائد والمصيبات .

فأفضلها الصبر عن المعاصي .

فالعاقل يدبر أحواله بالتثبت عند الأحوال الثلاثة التي ذكرناها بلزوم الصبر على المراتب التي وصفناها قبل ، حتى يرتقـي بها إلى درجـة الرضا

عن الله جل وعلا في حال العسر واليسر معًا ، أسأل الله الوصول إلى تلك الدرجة بمنه .

وأنشدني عبدُ اللهِ بنُ الأحوصِ :

تَعَزَّ بحسنِ الصبرِ عن كلِّ هالكٍ ففي الصبرِ مَسْلاَةُ الهمومِ اللوازمِ
إذا أنتَ لم تسلُ اصطباراً وخَشْيَةً سَلَوتَ عَلَى الأيامِ مثلَ البهائمِ
وليسَ يذودُ النفس عن شهواتِها من الناسِ إلاّ كلُّ ماضي العزائمِ

وأنشدني ابنُ زنجي البغدادي :

غايةُ الصبـــرِ لَذيـــذٌ طعمُهَا وَبَـــديُّ الصبرِ منه كالصَّبِرْ[1]
إنَّ في الصبـــر لفضلاً بَيِّنـــاً فاحملْ النفـــسَ عليـه تصطبرْ

وأنشدني الكريزي :

صبرتُ ومَن يصبرْ يجدْ غِبَّ صبرِهِ أَلَذَّ وأحْلَى مِنْ جَنَى النَّحلِ في الفمِ
ومَن لا يطبْ نفسًا ، ويستبقِ صاحبًا ويغفرْ لأهلِ الودِ يُضْرَمْ وَيَضْرِمِ

عن ثابت البناني عن معاذة امرأة صلة بن أشيم قالت : « لما أتاها نَعْي زوجها وابنها جاءها النساء ، فقالت : إن كنتُنَّ جئتن لتهنئتنا بما أكرمنا الله به وإلا فارجعن » .

قال ثابت : وكان صلة يأكل يومًا فأتاه رجل ، فقال : مات أخوك ، قال: هيهات ، قد نُعي إليّ ، اجلس فكل ، قال الرجل : ما سبقني إليك أحد ، فقال قال الله ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر /٣٠] .

---

(١) الصبر ـ بفتح فكسر ـ ثمرة طعامها مرٌّ كريه .

قال ابن عائشة : كتب بعض الحكماء إلى أخ له يعزيه عن ابن له يقال له محمد :

اصبْـــــر لكلِّ مصيبةٍ ، وتجلّدْ واعلـــمْ بأنّ المرءَ غيرُ مُخلّدِ
وإذا ذَكرتَ محمـــداً ومُصَابَهُ فاذْكرْ مُصَابكَ بالنبيِّ محمدِ» اهـ

* * *

الصَّبْرُ مفتاحُ الفَرَج

الابتلاء سنة ماضية ، لم ينج منه أحد ، وهو أنواع ، منه ما يكون في البدن ، ومنه ما يكون في المال والولد ، أو غير ذلك .

وقد قضى الحكيم بعدله وحكمته أن يَميز الخبيث من الطيب بالابتلاء ، ليعلم الصادق من الكاذب، فيجازي الصادق بصدقه، ويأخذ الكاذب بجريرته.

قال سبحانه : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة /١٥٥ - ١٥٧] .

فأخبر سبحانه عن وقوع الابتلاء ، كما أخبر عن جزآء الصابرين . و[اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمّات ، والرفق عند النوازل][1] .

قال ابن القيم رحمه الله[2] : وهو واجب بإجماع الأمة . وهو نصف الإيمان . فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر .

وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعًا :

الأول : الأمر به . نحو قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة/ ١٥٣] .

وقوله : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ** ﴾ [البقرة / ٤٥] .

وقوله : ﴿ **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا** ﴾ [آل عمران / ٢٠٠] .

وقوله : ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ [النحل/١٢٧].

الثاني : النهي عن ضده ؛ كقوله : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ** ﴾ [الأحـقاف / ٣٥] .

---

(١) « أدب الدنيا والدين » للماوردي (ص٣٤٤) .

(٢) « مدارج السالكين » (٢/١٧٤ - فما بعد) « منزلة الصبر » .

وقـــولـــه : ﴿ فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال / ١٥] .فإن تولية الأدبار : ترك للصبر والمصابرة .

وقوله : ﴿ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد/٣٣] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها .

وقوله : ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴾ [آل عمران /١٣٩] فإن الوهن من عدم الصبر .

الثالث : الثناء على أهله ؛ كقوله تعالى : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾ [آل عمران / ١٧] .

وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة /١٧٧].

وهو كثير في القرآن

الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم ؛ كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران / ١٤٦] .

الخامس : إيجاب معيته لهم ، وهي معية خاصة تتضمّن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ، ليست عامة ، وهي معية العلم والإحاطة ؛ كقوله : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال/ ٤٦] .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة /٢٤٩] .

السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه ؛ كقوله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل/ ١٢٦] .

وقوله : ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء / ٢٥] .

السابع : إيجاب الجزآء لهم بأحسن أعمالهم ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل / ٩٦] .

الثامن : إيجابه سبحانه الجزآء لهم بغير حساب ؛ كقوله تعالى :﴿ إِنَّمَا

يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر/ ١٠] .

التاسع : إطلاق البشرى لأهل الصبر ؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة/ ١٥٥] .

العاشر : ضمان النصر والمدد لهم ؛ كقوله تعالى : ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران / ١٢٥] ....

الحادي عشر : الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم ؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى / ٤٣] .

الثاني عشر : الإخبار أنه ما يُلَقَّى الأعمالَ الصالحة وجزاءها ، والحظوظ العظيمة ، إلا أهل الصبر ؛ كقوله تعالى : ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص/٨٠] .

وقوله : ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت / ٣٥] .

الثالث عشر : الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر ؛ كقوله تعالى لموسى : ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم / ٥] .

وقوله في أهل سبأ : ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ/ ١٩] .

وقوله في سورة الشورى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى / ٣٢ - ٣٣] .

الرابع عشر : الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه

المرهوب ، ودخول الجنة ، إنما نالوه بالصبر ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد/ ٢٣ - ٢٤] .

الخامس عشر : أنه يُورث صاحبه درجة الإمامة .

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة / ٢٤] .

السادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان ؛ كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان ، و بالتقوى والتوكل ، وبالشكر والعمل الصالح والرحمة .

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له ، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « خيرُ عيشٍ أدْرَكْناهُ بالصبر »(١) .

وأخبر النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح أنَّه «ضِيَاء»(٢) ، وقال : « **مَن يَتَصَبَّر يُصَبِّرهُ اللَّه** »(٣) .

وفي الحديث الصحيح : « **عَجَبًا لأمْرِ المؤمنِ ! إنَّ أمرَهُ كلَّه له خيرٌ ، وليسَ ذلكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ . إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شكَرَ ؛ فكان خيرًا له . وإنْ أصابَتْه**

---

(١) علَّقه البخاري في « الرقاق » (٣٠٩/١١) باب : الصبر عن محارم الله ، بصيغة الجزم ، ووصله أحمد في « الزهد » (ص١٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٠/١) من طريق مجاهد عن عمر . ورواه الحاكم من وجهٍ آخر عن مجاهد عن سعيد بن المسيب عن عمر . وهذا أشبه .
وانظر : « فتح الباري » (٣٠٩/١١ - ٣١٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري .

(٣) رواه البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري .

ضَرَّاءُ صَبَر ؛ فكان خيرًا له »[1] .

وقال للمرأة السوداءِ التي كانت تُصْرَعُ فسَأَلَتْهُ أن يدعَو لها : «**إنْ شئْت صَبَرْتِ ولك الجنة . وإن شئْتِ دعوتُ اللّهَ أنْ يُعافيكِ** » . فقالت : إنِّي أتَكَشَّفُ فادْعُ اللّه أنْ لا أتَكَشَّف . فدعا لها [2]

وأمر الأنصار رضي الله عنهم بأن يصبروا على الأَثَرَةِ التي يلقونها بعده، حتى يلقوه على الحوض[3] .

وأمَرَ عند مُلاقَاة العدو بالصبر[4] . وأمَرَ بالصبر عند المصيبة ، وأخبرَ أنه إنما يكون « **عند الصَّدْمةِ الأولى** »[5] .

وأمَرَ المُصَابَ بأنفع الأمورِ له ، وهو الصبر والاحتساب ، فإن ذلك يخففُ مصيبتَهُ ، ويُوفِّرُ أجرهُ . والجَزَعُ والتسخطُ والتَّشَكِّي يزيدُ في المصيبة ، ويُذْهِبُ الأجرَ .

وأخبرَ أنّ الصبر خيرٌ كله ، فقال : « **ما أُعطي أحَدٌ عطاءً خيرًا له وأوسعَ مِنَ الصبر** »[6] .

والصبر في اللغة : الحبسُ والكَفُّ ؛ ومنه: قُتِلَ فلانٌ صَبرًا ؛ إذا أُمْسِكَ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صُهَيْب .

(٢) رواه البخاري (٥٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٧٦) من حديث ابن عباس .

(٣) رواه البخاري (٣٧٩٢) ، ومسلم (١٨٤٥) من حديث أُسَيْد بن حُضَيْر .

(٤) رواه البخاري (٣٠٢٤) ، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى بلفظ : « لا تَمَنَّوا لقاء العدو وسَلُوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا » الحديث بطوله .
وله شاهد عند البخاري (٣٠٢٦/ معلقًا) ، ومسلم (١٧٤١) عن أبي هريرة .
وله شاهد آخر عند الدارمي (٢١٦/٢) عن عبد الله بن عَمْرو .

(٥) رواه البخاري (١٢٥٢) ، ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس .

(٦) جزء من حديث أبي سعيد الخدري السابق قريبًا .

وحُبِسَ ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف / ٢٨] . أي: احبس نفسك معهم .

فالصبر : حبس النفس عن الجَزَع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش .

وهو ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله .

فالأولان : صبر على ما يتعلق بالكسب ، والثالث : صبر على ما لا كسب للعبد فيه .....

قال الجنيد ... وسُئل عن الصبر ؟ فقال : تجرّع المرارة من غير تعبّس .

قال ذو النون المصري : الصبر التباعد من المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقيل : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقيل : هو الفناء في البلوى ، بلا ظهور ولا شكوى .

وقيل : تعويد النفس الهجوم على المكاره .

وقيل : المقام مع البلاء بحسن الصحبة ، كالمقام مع العافية .

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله ، وتلقّي بلائه بالرحب والدعة .

وقال الخواص : هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ؛ واعجبًا ! كيف يصبرون ؟ وأنشد :

والصَّبْرُ يَجْمُلُ في المواطنِ كلّها إلا عليكَ فإنَّه لا يَجْمل

وقيل : الصبر هو الاستعانة بالله .

وقيل :

الصَّبْرُ مثل اسمه مرٌّ مذاقتــه لكن عواقبهُ أحْلى من العسلِ

وقيل : الصبر أن ترضى بتلف نفسك في رضى من تحبه ؛ كما قيل :

سأصبرُ كي ترضى وأتْلَفُ حسرةً وحَسْبيَ أن ترضى ويُتْلِفُني صبري

..... قال أبو علي الدقاق :فاز الصابرون بعزِّ الدارين ؛ لأنهم نالوا من الله معيّته ؛ فإن الله مع الصابرين .....

وقيل : اصبروا بنفوسكم على طاعة الله ، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله ، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله .....

وقيل : اصبروا على النعماء ، وصابروا على البأساء والضراء ، ورابطوا في دار الأعداء ، واتقوا إله الأرض والسماء ، لعلكم تفلحون في دار البقاء....

وقيل : تجرَّع الصبرَ ، فإن قَتَلَكَ ، قَتَلَكَ شهيدًا ، وإن أحياكَ ، أحياكَ عزيزًا.

وقيل : الصبر لله غناء ، وبالله تعالى بقاء ، وفي الله بلاء ، ومع الله وفاء ، وعن الله جفاء ، والصبر على الطلب عنوان الظَّفَر ، وفي المِحَن عنوان الفرج» اهـ

وقال الماورديُّ[1] رحمه الله: « وقال بعض البلغاء : مِن خير خلالك

(١) « أدب الدنيا والدين » (ص/٣٤٤ ـ فما بعد) .

الصبر على اختلالك .

وقيل في منثور الحِكَم : مَن أحب البقاء فليعدّ للمصائب قلبًا صبوراً .

وقال بعض الحكماء : بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ .

وقال بعض الشعراء - وهو عبيد بن الأبرص - :

صَبِّرِ النَّفْسَ عندَ كُلِّ مُلِمٍّ ... إنّ في الصبرِ حيلةَ المُحْتَالِ
لا تَضِيقَنَّ في الأمورِ فقد ... تُكْشَفُ غَمَّاؤُهَا بغيرِ احتيالِ
ربّما تَجْزع النفوسُ مِن ... الأمرِ له فُرْجة كحلِّ العقالِ(١)

.... وقال شبيبُ بن شيبة للمهديّ : إنّ أحقّ ما تصبر عليه ما لم تجد إلى دفعه سبيلاً ، وأنشد :

ولَئِنْ تُصِبْكَ مصيبةٌ فَاصْبِرْ لها ... عَظُمَتْ مصيبةُ مُبْتَلًى لا يصبرُ

وقال آخر :

تَصَبَّرْتُ مَغْلُوبًا وإنّي لَمُوجَعٌ ... كما صَبَرَ الظَّمآنُ في البلدِ القَفْرِ
وليسَ اصْطِباري عنكَ صبرَ استطاعةٍ ... ولكنَّهُ صبرٌ أمرٌ مِنَ الصَّبْرِ

.... وقال بعض الحكماء : اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم تَقْلَه .

وقال بعض الشعراء :

إذا مَلَكَ القَضَاءُ عليكَ أمْرًا ... فليسَ يَحُلُّه غَيْرُ القَضَاءِ
فَمَا لَكَ والمُقَامُ بدارِ ذُلٍّ ... ودارُ العِزِّ واسعةُ الفضاءِ

وقال بعض الحكماء : إن كنتَ تجزعُ على ما فاتَ مِن يدكَ فاجزعْ على

(١) العقال: الحبل الذي يُعْقَل به البعير أو الناقة.

ما لا يصل إليك ، فأخذه بعض الشعراء فقال :

لا تُطِلِ الحُزْنَ على فـائـــــتٍ فقلَّمَا يُجْدِي عليكَ الحَـــــزَنْ
سيَّان مَحْزونٌ على فـائـــــتٍ ومُضْمِرٌ حزنًا لما لمْ يكُـــــنْ

... وقال أكثم بن صيفي : مَن صبَر ظَفَر

وقال ابن المقفـــع : كـــان مكتوبًا في قصر أردشير : الصبر مفتاح الدرك .

وقال بعض الحكماء : بحسن التأنّي تسهل المطالب .

وقال بعض البلغاء : مَن صبَر نالَ المُنى ، ومن شكرَ حصَّنَ النعمى .

وقال محمد بن بشير :

إنّ الأمـورَ إذا انْسَـــدَّتْ مَطَالِبُهَا فالصَّبْرُ يَفتقُ منها كل ما ارْتَتَجَا[1]
لا تَيْأسَـنَّ وإنْ طَالَتْ مُطَالَبَـــةٌ إذا استعنتَ بصبرٍ أن تَرَى فَرَجَـا
أخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أنْ يَحْظَى بحاجتِهِ ومُدْمِنُ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجَا

.... فإن من قل صبره عزب رأيه ، واشتدّ جزعه ، فصار صريع همومه، وفريسة غمومه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [لقمان / ١٧] ....

وقال بعض الحكماء : بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور .

وقال بعض البلغاء : عند انسداد الفُرَج تبدو مطالع الفَرَج ....

وأنشد بعض الأدباء لعثمان بن عفان رضي الله عنه :

---

(١) أي كل ما استغلق .

خليليَّ لا واللهِ مـــا مـــن مُلِمَّةٍ تَـــدومُ على حَيٍّ وإنْ هي جَلَّتِ
فإنْ نَزَلَتْ يومًا فلا تَخْضَعَنْ لها ولا تُكْثِرِ الشَّكْوى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
فكَمْ مِـــن كريمٍ قـــد بُلِي بنوائبٍ فَصَابَرَها حتى مَضَتْ واضْمَحَلَّتِ
وكَمْ غَمْرَةٍ هاجَتْ بأمواجِ غَمْرَةٍ تَلَقَّيْتُها بالصبرِ حتى تَجَلَّتِ
وكانَتْ على الأيـــامِ نَفْسي عزيزةً فلمَّا رأتْ صبري على الذُّلِّ ذَلَّتِ
فقلتُ لها : يـــا نفسُ مُوتي كـريمةً فَقَدْ كانتِ الدُّنيا لَنَا ثُمَّ وَلَّتِ

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب ، إذا قارنت حزمًا ، وصادفت عزمًا ، هان وقعها ، وقلَّ تأثيرها وضررها .

فمنها : استشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء ، وتَقَضِّي المَسَارّ ، وأنّ لها آجالاً منصرمة ، ومددًا منقضية ، إذ ليس للدنيا حال تدوم ، ولا لمخلوقٍ فيها بقاء ....

وسأل بعض خلفاء بني العباس جليسًا له عن الدنيا فقال : إذا أَقْبَلَتْ أدْبَرَتْ .

وقال عَمْرو بن عُبَيْد : الدنيا أمَد والآخرة أبد .

وقال أنوشروان : إنْ أحببتَ ألا تغتمّ فلا تقتنِ ما به تهتمّ .

... وأنشدني بعض أهل العلم لسعيد بن مُسْلم :

إنما الـــدنيا هِبَاتٌ وعَـــوَارٍ مُسْتَرَدَّهْ
شِدَّةٌ بعـــدَ رَخـــاءٍ ورَخَاءٌ بعدَ شِدَّهْ

.... وقال ابن الرُّمي :

رأيتُ حيـاةَ المـــرءِ رَهْنًا بموتـــه وصحتـــهُ رَهْنًا كـذلكَ بالسَّقْمِ
إذا طابَ لي عيشٌ تَنَغَّصَ طِيبُهُ بصدْقِ يقيني أنْ سَيَذْهَبُ كالحُلْمِ

ومَن كانَ في عيشٍ يُرَاعِي زَوَالَهُ فذلكَ في بُؤْسٍ وإنْ كانَ في نُعْمِ

ومنها : أن يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم ، وأنها تتقدَّر بأوقات لا تنصرم قبلها ، ولا تستديم بعدها ، فلا تَقْصُر بِجَزَعٍ ، ولا تَطُولُ بصبرٍ ، وأنّ كل يوم يمرُّ بها يذهبُ منها بشطرٍ ، ويأخذ منها بنصيب ، حتى تنجلي وهو عنها غافل .....

وأنشدتُ لبعض الشعراء :

عواقبُ مكروهِ الأمـــورِ خيارٌ وأيامُ دُرٍّ لا تَدومُ قِصَارُ
وليسَ بباقٍ بُؤسها ونعيمهـــا إذا كَرَّ ليلٌ ثـــم كَرَّ نهـــارُ

ومنها : أن يعلم أنّ فيما وُقِيَ من الرزايا ، وكُفِيَ من الحوادث ، ما هو أعظم من رزيته ، وأشد من حادثته ، ليَعْلَم أنه ممنوح بحسن الدفاع ....

وقال بعض الشعراء :

لا تكرَهِ المكروهَ عنـــدَ حُلُولِهِ إنَّ العواقبَ لَمْ تَزَلْ مُتَبَاينَهْ
كَمْ نعمةٍ لا تستقلُّ بِشُكْرِها للهِ في طَيِّ المكَارِهِ كامِنَهْ

ومنها : أن يَتَأسّى بذوي الغِيَرِ ، ويَتَسَلَّى بأُولي العِبَر ، ويعلم أنهم الأكثر عدداً ، والأسرعون مدداً ، فيستجدّ من سلوة الأسى وحسن العزاء ما يخفف شجوه ، ويقلّ هلعه ....

وقال أبو نواس :

المرءُ بينَ مصائبَ لا تنقضي حتى يُوارَى جسمُه في رَمْسِهِ
فَمُؤَجَّلٍ يَلْقَى الرَّدَى في أهلِهِ ومُعَجَّلٍ يَلْقَى الرَّدَى في نَفْسِهِ

ومنها : أن يعلم أن النعم زائرة ، وأنها لا محالة زائلة ، وأن السرور بها

إذا أقبلَتْ مشوبٌ بالحذر من فراقها إذا أدبرَتْ ، وأنها لا تفرح بإقبالها فرحًا حتى تعقب بفراقها ترحًا ، فعلى قدر السرور يكون الحزن .

وقد قيل في منثور الحِكَم : المفروح به هو المحزون عليه .

وقيل : من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره .

وقال بعض الحكماء : من علم أنّ كل نائبةٍ إلى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء .

وقيل للحسن البصري رحمه الله : كيف ترى الدنيا ؟

قال : شغلني توقّع بلائها عند الفرح برخائها . فأخذه أبو العتاهية فقال :

تزيدُهُ الأيـــامُ إنْ أقبلَتْ شدة خوفٍ لتصَارِيفِها

كأنّها في حال إسْعافها تُسْمِعُهُ وَقْعَـةَ تَخْوِيفِهـا

ومنها : أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره ، وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره ؛ إذ كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب ، وتصل صاحبًا بفراق صاحب ، فتكون سروراً لمن وصلته ، وحزنًا لمن فارقته .....

وقال البُحْتُرِيُّ :

مَتى أرتِ الدنيا نَبَاهَةَ خَامِلٍ فلا تَرْتَقِبْ إلا خُمُولَ نَبِيهِ

وقال المُتَنَبِّي :

بذا قضتِ الأيامُ بين أهلِها مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ

وأنشدَ بعض أهل الأدب :

ألا إنما الدنيا غَضَارَةُ أَيْكَةٍ إِذَا اخْضَرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ

---

(١) الغَضَارَةُ : النعمة والسعة في العيش، والغُفْرَةُ والغَضْرَاءُ: الأرض الطيبة الخضراء، وقيل: هي أرضٌ فيها طين حربٌ.

فلا تَفْرَحَنْ منها بشيءٍ تُفيدُهُ سَيَذْهَبُ يومًا مثلَ ما أنتَ ذَاهِبُ

وما هذهِ الأيامُ إلا فَجَائِعٌ وما العيشُ واللَّذَّاتُ إلاَّ مَصَائِبُ

ومنها : أن يعلم أن طوارق الإنسان من دلائل فضله ، ومحنه من شواهد نُبله .....

وقال الصَّنَوْبَرِيُّ :

مِحَنُ الفَتَى يُخْبِرْنَ عن فضلِ الفَتى كالنَّارِ مخبرةٌ بِفَضْلِ العَنْبَرِ

ومنها : ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ، ويستفيده من الحنكةِ ببلاء دهره ، فيصلب عوده ، ويستقيم عموده ، ويكمل بأدنى شدّته ورخائه ، ويتعظ بحالتي عفوه وبلائه ....

ومنها : أن يختبر أمور زمانه ، ويتنبه على إصلاح شأنهِ ، فلا يغترَّ برخاء، ولا يطمع في استواء ، ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة ، أو تخلو من تغلُّب واستحالة ، فإن من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها .

وأنشد بعض الأدباء :

إنّي رأيتُ عواقبَ الدنيا فتركتُ ما أَهْوى لِمَا أَخْشَى

فكّرْتُ في الدنيا وعالَمِها فإذا جميعُ أمورِها تَفْنَى

وَبَلوْتُ أكثرَ أهلِهَا فإذا كلّ امرئٍ في شأنه يَسْعَى

أسْنَى منازلها وأرفعُها في العزِّ أَقْرَبُها منَ المَهْوَى

تَعْفُو مَسَاوِيها مَحَاسِنَهَا لا فرقَ بين النَّعْي والبُشْرَى

ولقد مررتُ على القبورِ فما مَيَّزْتُ بينَ العبدِ والمَوْلَى

أتُرَاكَ تدري كَمْ رأيتَ من الأحياء ثُمَّ رأيْتَهُمْ مَوْتَى؟

فإذا ظَفَر المُصَاب بأحد هذه الأسباب تَخفّفَتْ عنه أحزانه.، وتسهلت عليه أشجانه ، فصار وشيك السلوة ، قليل الجزع ، حسن العزاء .

وقال بعض الحكماء : مَن حاذر لم يهلع ، ومَن راقبَ لم يجزع ، ومن كان متوقّعًا لم يكن متوجّعًا .

وقال بعض الشعراء :

ما يكونُ الأمرُ سهلاً كلَّه   إنّما الدنيا سُرورٌ وحُزُونْ
هَوِّنِ الأمرَ تَعِشْ في راحةٍ   قلّما هَوَّنْتَ إلاّ سَيَهُونْ
تَطْلُبُ الراحةَ في دارِ العَنَا   ضَلَّ مَن يطلبُ شيئًا لا يكُون....

وقال بعض الشعراء :

إذا بُليتَ فَثِقْ بالله وارضَ بهِ   إنَّ الذي يكشفُ البَلْوَى هوَ الله
إذا قَضَى اللهُ فاستَسْلِمْ لقُدْرَتِهِ   ما لامْرِئٍ حِيلَةٌ فيما قَضَى الله
اليأسُ يَقْطعُ أحيانًا بصاحبهِ   لا تَيْأسَنَّ فإنَّ الصانعَ الله ......

وأنشد بعض أهل العلم :

لا تُكْثِرِ الشكوَى إلى الصديقِ   وارْجعْ إلى الخالقِ لا المخلوقِ
لا يَخْرُجُ الغريقُ بالغريقِ ....

وقال ابن الرومي :

اصْبِري أيّتها النفسُ   فإنَّ الصبرَ أحْجَى
ربَّما خَابَ رجاءٌ   وأتَى ما ليسَ يُرْجَى ....

وأنشدتُ لامرأة من العرب :

أيُّها الإنســـانُ صبراً إنَّ بعدَ العُسْرِ يُسْرَا
كمْ رَأَيْنا اليـــوم حُرًّا لم يكُنْ بالأمسِ حُرًّا
مَلَكَ الصبرَ فأضْـحَى مالِكًا خـيراً وشـراًّ
اشْرَبِ الصبـــر وإنْ كانَ مِـــن الصبرِ أمَرًّا

وأنشدتُ لبعض أهل الأدب :

يُـــرَاعُ الفتَى تَبْـــدو صُـدورُهُ فَيَأْسَى وفي عُقْبَاهُ يَأْتي سرورُهُ
ألمْ تـرَ أنَّ الليـــلَ لمَّا تـرَاكَمَـــتْ دُجَاهُ بَدَا وجْهُ الصَّبـاحِ ونُورُهُ
فَلاَ تَصْحَبَنَّ اليأسَ إن كنتَ عَالِمًا لبيبًا فـإِنّ الدَّهْرَ شتَّـى أمُـورُهُ

واعلم أنه قلَّ مَن صبرَ على حادثة ، وتَمَاسَكَ في نكبةٍ إلا كان انكشافها وشيكًا ، وكان الفرج منه قريبًا .

أخبرني بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب حُبِسَ في السجن خمس عشرة سنة ، حتى ضاقت حيلته ، وقلَّ صبره ، فكتبَ إلى بعض إخوانه يشكو له طول حبسه ، فردّ عليه جواب رقعته بهذا :

صَبْرًا أبا أيـــوب صَبْرَ مُبَرَّحٍ فإذا عَجَزْتَ عن الخُطُوبِ فمَن لها ؟
إنَّ الذي عَقَدَ الذي انعَقَدَتْ له عُقَدُ المَكَارِهِ فيـــكَ يَمْلِكُ حَلَّهَـــا
صَبْرًا فإنَّ الصبرَ يعقـــبُ راحةً ولعَلَّهـــا أن تَنْجَلـــي ولعَلَّهَـــا

فأجابه أبو أيوب بقوله :

صَبَّرْتَنـــي وَوَعَظْتَنى وأنَـــا لها وَسَتَنْجَلي بَلْ لا أقـولُ لعلَّهَا
ويَحُلُّهَا مَن كانَ صَاحِبَ عَقْدِهَا كـرَمًا به إِذْ كانَ يَمْلِكُ حَلّها

فلم يلبث في السجن إلا أيامًا حتى أُطْلِقَ مُكَرَّمًا .

وأنشد ابنُ دريد، عن أبي حاتم :

إذا اشْتَمَلَتْ على اليأسِ القلوبُ وضَاقَ لِما به الصُّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنَتِ المكَارِهُ واطْمَأَنَّتْ وَأَرْسَتْ في مكانتِها الخطوبُ
ولم تَرَ لانْكِشَافِ الضُّرِّ وجهًا ولا أغْنَى بِحِيلَتِهِ الأَرِيبُ
أَتَاكَ على قنُوطٍ منكَ غَوْثٌ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ المُسْتَجِيبُ
وكُلُّ الحادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ فَمَوْصُولٌ بها الفَرَجُ القَرِيبُ» اهـ

وسبق قول ابن القيم رحمه الله[1] : « والشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر ؛ فإن يعقوب عليه السلام وَعَدَ بالصبر الجميل ، والنبي إذا وَعَدَ لا يخلف ، ثم قال : ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ [يوسف / ٨٦] . وكذلك أيوب أخبر الله عنه أنه وجده صابراً مع قوله : ﴿ **مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ [الأنبياء / ٨٣] .

وإنما يُنافي الصبرَ شكوى الله ، لا الشكوى إلى الله ، كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فَاقَةً وضرورةً ، فقال : يا هذا ! تشكو مَن يرحمك إلى مَن لا يرحمك ؟ ثم أنشد :

وإذا عَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فاصْبِرْ لها صَبْرَ الكَرِيمِ فإنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ
وإذا شكوتَ إلى ابنِ آدمَ إنَّما تَشْكُو الرحيمَ إلى الَّذِي لا يَرْحَمُ

..... وأجمع عقلاء كل أمةٍ على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، وأن من رافَق الراحة فارق الراحة ، وحصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة ، فإن على قدر التعب تكون الراحة

على قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتي العَزَائِمُ وتأتي على قَدْرِ الكريمِ الكَرائِمُ
ويَكْبُرُ في عينِ الصغيرِ صغيرُها وتَصْغُرُ في عينِ العظيمِ العظائِمُ »اهـ

* * *

(١) « مدارج السَّالكين » (٢/١٨٤) .

إِصْلاَحُ الْمَالِ

فصل

في ذم التبذير

تمهَّدَ أنَّ المرأة راعيةٌ في بيت زوجها ، ومسئولة عن رعيتها ، فهي راعيةٌ على زوجها ، وعلى ماله ، وأولاده ، وسائر ما في بيته ، وعليها أن تُصْلِحَ مالَهُ بما يزيده وينمّيه ، ولا يجوز لها أن تكون سببًا في إهداره ، أو أداة إفسادٍ وإهلاكٍ له ، وقد حذَّر سبحانه من ذلك ، حينَ نَهَى الناسَ عن التبذير ، وذكر جزاءَ المبذِّرين فقال عز وجل : ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا** ﴾ [الإسراء / ٢٦ - ٢٧] .

قال القرطبيُّ رحمه الله[1] : « أي : لا تُسْرِف في الإنفاق في غير حقٍّ .

قال الشافعيُّ رضي الله عنه : والتبذير إنفاق المال في غير حقِّه ، ولا تبذير في عمل الخير .

وهذا قول الجمهور.

وقال أشهب عن مالكٍ : التبذير هو أخذ المال من حقِّه ووضعه في غير حقِّه ، وهو الإسراف ، وهو حرام ؛ لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **إِخْوَانَ** ﴾ ؛ يعني : أنهم في حكمهم ؛ إذ المبذِّر ساعٍ في إفسادٍ كالشياطين ، أو أنهم يفعلون ما تسوّل لهم أنفسهم ، أو أنهم يُقْرَنونَ بهم غدًا في النارِ ؛ ثلاثة أقوالٍ .

---

(١) « تفسير القرطبي » (١٠/٢٤٧ - ٢٤٨) .

والإخوان هنا جمع أخٍ من غير النَّسَب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات / ١٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ ؛ أي : احذروا متابعته والتشبُّه به في الفساد . والشيطان اسم الجنس .

وقرأ الضحاك : ﴿ إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴾ على الإفراد ، وكذلك ثبتَ في مصحفِ أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه » .

وقال القرطبيُّ أيضًا : « مَن أنفقَ ماله في الشهوات زائدًا على قدر الحاجات وَعَرَّضَهُ بذلك للنفاد فهو مبذّر ، ومَن أنفقَ رِبْحَ ماله في شهواتهِ وحَفِظَ الأصلَ أو الرقبة فليس بمبذِّرٍ ، ومَن أنفقَ درهمًا في حرامٍ فهو مبذِّر ؛ ويحجر عليه في نفقة الدِّرهم في الحرام ، ولا يحجر عليه إنْ بذَلَهُ في الشهوات؛ إلاَّ إذا خيف عليه النفاد » اهـ

وقال ابنُ كثيرٍ رحمه الله[1] : « لما أَمَرَ بالإنفاقِ نَهَى عن الإسراف فيه ، بل يكون وسطًا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان / ٦٧] .

ثم قال منفِّرًا عن التبذير والسرف : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ ، أي : أشباههم في ذلك .

وقال ابن مسعود : التبذير الإنفاق في غير حقٍّ . وكذا قال ابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفقَ إنسانٌ مالَهُ كلَّهُ في الحقِّ لم يكن مبذِّرًا ، ولو أنفقَ مُدًّا في غيرِ حقِّه كان تبذيرًا .

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٦٦/٥ - ط : الشعب) .

وقال قتادة : التبذير النفقة في معصية الله ، وفي غير الحقِّ وفي الفساد ».

قال ابن كثير[١] : « وقوله ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾، أي : في التبذير والسَّفَه ، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ ، أي : جحودًا ؛ لأنَّه أنكرَ نعمةَ الله عليه ، ولم يعمل بطاعته ، بل أَقْبَلَ على معصيتهِ ومخالفتهِ » اهـ

فصل

في القصد في الإنفاق

دَرَجَ كثيرٌ من الناس على إنفاق ما لديهم لأوَّلِ مناسبةٍ تحلّ بهم ، وربما كانت شيئًا هيّنًا لا يستلزم ذلك ، حتى إذا فنيتْ أموالهم نَدِموا وتحسَّروا ، وأمْسَكَ آخرون عن الإنفاق فَبَدَتْ أجسامهم هزيلة ، وبيوتهم منفِّرة ، وهجرهم الصديق ، ونأى عنهم القريب؛ لفُحْشِ بخلهم ، وفساد طريقتهم .

والقصد في ذلك كله هو التوسط في الإنفاق ، ووضع الأمور في مواضعها الائقة بها ، بلا سرفٍ أو مخيلة .

وقد ورد الحثُّ على القصد في شرعنا من غير وجهٍ ؛ من ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء/ ٢٩ - ٣٠] .

قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله[٢] : « يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش ،

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٥/٦٦ - ط : الشعب) .

(٢) السابق (٥/٦٧) .

ذامًّا للبخل ، ناهيًا عن السَّرَف : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ ؛ أي : لا تكن بخيلاً مَنُوعًا ، لا تعطي أحدًا شيئًا ، كما قالت اليهود عليهم لعائنُ الله: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة/ ٦٤] ، أي : نَسَبوه إلى البخل ، تعالى وتَقَدَّسَ الكريم الوهَّاب .

وقوله : ﴿ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ ؛ أي : ولا تسرف في الإنفاق ، فتعطِيَ فوقَ طاقتك ، وتُخرجَ أكثر مِن دخلك ، فتقعدَ ملومًا محسورًا .

وهذا من باب اللَّفِّ والنَّشْر ، أي : فتقعد إن بَخِلْتَ ملومًا ، يلومك الناسُ ويذمونك ويستغنون عنك ، كما قال زهيرُ بن أبي سُلمى في «المعلَّقة» :

ومَنْ كانَ ذا مالٍ وَيَبْخَلْ بِمَالِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

ومتى بسطتَ يدَكَ فوقَ طاقتك ؛ قعدتَ بلا شيءٍ تنفقه ، فتكون كالحسير ـ وهو : الدابة التي قد عَجَزَت عن السَّير ، فوقفتْ ضعفًا وعجزًا ؛ فإنها تُسَمَّى الحسير ، وهو مأخوذٌ من الكلال ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك / ٣ ـ ٤] أي : كليل عَن أن يَرَى عيبًا ؛ هكذا فَسَّرَ هذه الآية بأنَّ المراد هنا : البخل والسَّرَف : ابنُ عباس ، والحسن ، وقتادة ، وابنُ جريج ، وابن زيدٍ ، وغيرهمُ »[1] اهـ

ومِنْ هنا أُبيح الادخار للمال وغيره بشروطه المبيّنة في غير هذا الموضع ؛ من أداءِ حقِّ الله فيه ، وغير ذلك .

وليس سديدًا ـ كما ترى ـ أن ينفق المرء ما يملكه من قوت الشهر أو العام ، في أيامٍ قلائل ، ثم يجلس بعد ذلك يسأل الناس ؛ أعطوه أم منعوه .

---

(١) وراجع بقية كلام ابن كثير .

وراجع كذلك : « تفسير القرطبي » (١٠/٢٤٩ ـ ٢٥١) .

فصل
«كماليّات زائفة»

وعلى المرأةِ في مثل حالتنا أن تتخلَّى عن تلكَ «الكماليات» الزائفة، وأن تحرصَ على توفير الحدّ الأدني من الضروريات لبيتها وأسرتها.

وقد سبق أن أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله عنها كانت تقوم بأعمال بيت زوجها: الزبير رضي الله عنها، بما في ذلك سياسة فرسِه، وجلب العلف له من خارج المدينة، تحمل ذلك على رأسها، وتسير به، حتى تأتي الفرس فتعلفه، كما تقوم بأعمال البيت المختلفة، وكانت تعجن، ولم تكن تُحْسن تخبز فكانتْ تخبز لها جارات من الأنصار، وصَفَتْهُنَّ أسماء - فيما سبق - بقولها: «وكن نسوة صدقٍ».

ولم تأنف أسماء رضي الله عنها ، وهي صاحبة الحَسَب والنَّسَب من القيام بمثل هذه الأعمال، ولا صَخِبَتْ على زوجها، ولا تمرَّدت على حياتها، حتى فَتَحَ اللهُ على المسلمين، فأرسل إليها أبو بكرٍ بخادم لها تساعدها على القيام بأمور بيتها.

قالت أسماء عندئذٍ: «فكأنَّما أعتقني».

وكانت هذه سنة ماضية في نساء الجيل الأول من المسلمات رضي الله عنهن.

وما نبأ فاطمة بنت النبيِّ ﷺ بخافٍ علينا، حين اشتكتْ أَثَرَ الرَّحى في يدها، ومع ذلك لم تقف عن العمل، بل واصلت مسيرتها، حتى فتح الله على النبيِّ ﷺ فأرسلَ إليها بخادم تساعدها، وقد مضى خبرها في ذلك.

فهؤلاء هُنَّ القدوة، وهُنَّ المثَل الأعلى، وليس يليق بمسلمةٍ أن تدع سنة هؤلاء الكرام رضي الله عنهن، وتُلْقي بنفسِها في أحضان أعداء ملَّتِها يصنعونَها على طريقتهم الخبيثة!!

وكلُّ بيت أدْرَى بضروريَّاتهِ وكماليَّاتهِ.

فصل
وماذَا إذا عَجَزَ الزَّوْجُ عَنِ العَمَلِ؟!

وقد يعجز الزوج عن العمل لضعفٍ ما لحق به ، إثر حادثٍ ، أو مرض أصابه؛ فعلى زوجته أن تبحث لها عن عملٍ يناسبها كامرأةٍ مسلمة ، حريصة على صيانتها وعفتِها وحجابها ، وليس يليق بها أن تزاحم الرجال في عمل ولا غيره ، كما لا يليق بها أن تقف مكتوفة الأيدي ، بل عليها أن تبحثَ عن عملٍ مناسب ، كالحياكة مثلاً ، فإذا وفَّقَها اللهُ عز وجل لذلك فلتحرص على رضى زوجها ، ولتحذر من المَنّ عليه بعملها ، أو الافتخار عليه بذلك ، ولتذكر أيام عافيته ، وكيف كان حريصًا على جلب السعادة إليها ، وإدخال السرور عليها، لكنه قَدَر الله عز وجل ، وعليهما التسليم لقَدَره سبحانه وتعالى .

ومن الممكن للمرأة أن تقومَ بأعمال التدريس للأطفال ، وتحفيظ القرآن إن كانت مِن ذوي الفقه في ذلك ، ولا ينبغي لها أن تُقْحم نفسها فيما لا تعرفه .

وليس عيبًا أن تعمل المرأة لتساعد زوجها، عن طيب خاطرٍ ، وقناعةٍ بدورها الذي تقوم به، وقد وردت النصوص الشرعية بالحثِّ على العمل والسعي على الكسب.

قال عبد الله بن الإمام أحمد رحمهما الله تعالى[١] :

«سألتُ أبي عن المرأة الفقيرة تجيء إلى اليهودي أو النصراني؛ تتصدَّق منه؟

قال[٢] : أخشى أن يكون ذلك ذلٌّ.

---

(١) «مسائل الإمام أحمد - برواية ابنه عبد الله» (ص/٤٤٨ رقم ١٦٢٤ - ١٦٢٥/ ط: المكتب الإسلامي).

(٢) يعني: الإمام أحمد رحمه الله.

سألت أبي عن قومٍ يقولون: نَتَّكِلُ على الله ولا نكتسب؟

قال أبي: ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله؛ ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] فهذا قد علم أنهم يكتسبون ويعملون.

وقال النبيُّ ﷺ: «**مَن عَالَ ابْنَتَيْن ـ أو ثلاثة ـ فله الجنة**» .

يعني: مَن قال بخلاف هذا؛ فهذا قول إنسان أحمق»اهـ.

ومع ذلك فالواجب على الإنسان أن يتقيَّد في عمله بما شَرَعَهُ الله عز وجل له من أحكام ، وما حدَّهُ له من حدود، وعلى المرأة ـ خآصة ـ أن تبحثَ لها عن عملٍ يُنَاسِبُ ضعفَ بِنْيَتها، ولا يجرح لها ما فُرِضَ عليها من واجبات شرعية؛ كالحجاب والصيانة، وغير ذلك.

ومن الممكن للمرأة أن تستعين بأصدقاء صدقٍ لها يُساعِدْنها في بعض شأنها ، أو يشتركْنَ في عملٍ يعينهن على الاستمرار ، ويحفظهن من السقوط في « المسألة » .

ومن النساء من تشترك في الادخار مع جماعة من الأصدقاء فيما يسمَّى: « الجمعية » ، وقد جُرِّب ذلك فظهرَ نفعه ، فمن الممكن أن تسلك المرأة هذا السبيل لحلِّ بعض أزماتها ، وتوفير بعض حاجاتها الضرورية ، أو سدّ ثغراتها الطارئة .

وبالجملة ، فما يصلح لامرأة قد لا يصلح لأخرى ، وكل امرأةٍ أعلم في مثل ذلك بما يصلحها وما يضرها ، فلا داعي للإطالة فيه .

* * *

فصل
«عملٌ يُغْني عَنْ مَسْأَلَةٍ»

وقول الإمام أحمد رحمة الله عليه السابق في الفصل الماضي قبل هذا، يلْتقي مع أقوال غيرِه من السَّلفِ رضي الله عنهم جميعًا في الحثِّ على السعي على المعاش، وعمارة الأرض ، وتَعَاطي الأعمال، وقد ألَّفَ في ذلك الإمام الخلاَّل رحمه الله كتاب: «الحثّ على التجارة»، وألَّفَ ابنُ أبي الدنيا كتابه: «إصلاح المال» ، إلى آخر ما سبق عند أسلافنا[1] وقد ورد الحثّ على ذلك في مواضع من كتاب الله عز وجل، وسنة نبيِّه ﷺ، وعنَّفَ الشرع المطهّر مَن تكاسل عن عمله، أو قَعَدَ بلا حرفةٍ تحفظ له ماء وجه من ذلِّ السؤال، واستطردت النصوص الشرعية في مدح العمل والعاملين.

ومضى قريبًا وَصْفُ الإمام أحمد رحمه الله لمن قال: « نتَّكِلُ على الله ولا نكتسب» بقوله: « فهذا قول إنسان أحمق».

وقد رأينا كيف تعاطى أنبياء الله عز وجل التجارات والصناعات، مع قوةِ يقينهم في الله عز وجل، وحسن توكُّلهم عليه.

وليس عيبًا أن يتعاطى المرء حرفةً دنيئة، ما دامت ستحفظ له ماء وجهه، وتنقذه من عار المسألةِ.

ومن الممكن للمرأةِ ـ خآصة ـ أن تتعاطى حرفة سهلة توافق كيانها، وما جبلها الله عليه من ضعفٍ في بنيتها؛ كحرفة حياكة الملابس ، وأعمال «التطريز» ، أو صناعة الحلويات أو الألبان، ونحو ذلك من المهن السهلة التي

---

(١) وراجع : « صناعة الحياة » لمحمد أحمد الراشد، و«عُلُوّ الهمة » للشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل، و«صلاح الأمة في عُلُوِّ الهمة » للشيخ سيد العفاني حفظهم الله جميعًا.

تتناسب معها، ومع ظروف بيتها، وأكثر هذه المهن المذكورة مما يسهل على المرأة ـ إن شاء الله تعالى ـ أن تقوم به داخل بيتها ، وبين أفراد أسرتها، دون حاجةٍ إلى الخروج من بيتها بما يحمله من همٍّ ونَكَد.

وبهذا تستطيع المرأة أن تحفظ نفسها وأسرتها من ذلِّ المسألة، وأن تعين زوجها ، وتُحَسِّنَ من حالةِ أسرتها الفقيرة.

أضِف إلى ذلك ما سيغرسه العمل في المرأةِ من الاقتصاد في المعيشة، وترك الترف ، والحرص على إصلاح المال وتدبيره؛ نظراً لمعاينتها لما في السعي عليه وجَلْبه من هَمٍّ وتعبٍ.

* * *

مختاراتٌ من
« أحكامِ النساءِ »
لابن الجوزي رحِمَهُ اللَّهُ

طلب العلم

قال ابن الجوزي رحمه الله[1] :

« المرأةُ شخصٌ مكلَّفٌ كالرجلِ ، فيجبُ عليها طلبُ علمِ الواجباتِ عليها لتكونَ من أدائها على يقينٍ .

فإنْ لم يكنْ لها أبٌ أو أخٌ أو زوجٌ أو مَحرمٌ يعلمها الفرائضَ ، ويعرِّفها كيف تؤدي الواجبات ، كفاها ذلكَ ، وإن لم تكنْ سألت وتعلَّمت ، فإنْ قدَرت على امرأة تعلمُ ذلكَ تعرَّفت منها ، وإلا تعلَّمت من الأشياخِ وذَوي الأسنانِ من غيرِ خلوةٍ بها ، وتقتصرُ على قدرِ اللازمِ ، ومتى حدثت لها حادثةٌ في دينها سألت عنها ولم تستحِ ، فإنَّ اللهَ لا يستحي من الحقِّ .

بيانُ أنَّ ذاتَ الدينِ لا تستحِي من السؤالِ عن دينِهَا

عن عائشةَ رضي الله عنها؛ أنَّ أسماءَ رضي الله عنها سألت النبيَّ ﷺ عن الحيضِ ؟ فقال : « **تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتُطَهَّرُ ، فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا** ».

فقالت أسماءُ رضي الله عنها : وكيف تتطهرُ بها ؟ قال :

« **سُبْحَانَ اللَّهِ تَطَهَّرِي بِهَا** »، فقالت عائشةُ رضي الله عنها كأنَّها تخفي ذلكَ : تتبعي بها أثرَ الدمِ .

وسألته عن غسلِ الجنابة ؟ فقال : « **تَأْخُذِينَ مَاءَكِ فَتَطَهَّرِينَ فَتُحْسِنِينَ الطُّهُورَ وَأَبْلِغِي الطُّهُورَ ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ ، حَتَى يَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا،**

---

(١) « أحكام النساء » (ص٣٨) .

ثُمَّ تُفِيضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ » .

فقالت عائشةُ رضي الله عنها : نِعْمَ النساءُ نساءُ الأنصارِ ، لم يكنْ يمنعهنَّ الحياءُ أنْ يتفقهنَ في الدينِ »[1] اهـ

الصدقة

قال ابن الجوزي رحمه الله[2] :

« ينبغي للمتصدقِ أنْ يتخيرَ الأجودَ كسبًا لقوله تعالى : ﴿ **وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة /٢٦٧] .

وقولَ النبي ﷺ : « **لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ** » .

ثمَّ يتخيرُ الأجودَ في نفسهِ ، ثم يؤثرُ بالمحبوبِ ، فقد قالَ عز وجل : ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

وكانَ السلفُ إذا أحبوا شيئًا قدَّموه للهِ عز وجل .

فقالَ ابنُ عمرَ يومًا : اللهمَّ إنّه لا أحبَّ إليَّ من جاريتي رميثة وهي حُرة لوجهِ اللهِ تعالى .

وركبَ نجيبًا فأعجبَهُ مشيه فَأَنَاخَه فقال: يا نافعُ أشعرهُ وأدخلهُ في البدنِ.

وكانَ الربيعُ بنُ خثيم يتصدقُ بالسكرِ ويقولُ : « إنَّ الربيعَ يحبُ السكرَ» اهـ

---

(١) رواه مسلم (٦١/٣٣٢) .

وأورد البخاري قول عائشة معلقًا بصيغة الجزم ، في باب : الحياء في العلم (١/٢٧٦) .

(٢) « أحكام النساء » (ص/ ١٤١) .

قالَ ابنُ الجوزي[١] :

« كانَ كثيرٌ من السلفِ لا يقنعونَ بنفسٍ ما يغني الفقير ، بل يعطونه فوقَ ما يؤمِّل ، لينالُوا ثوابَ فرحته .

فروينا عن ابنِ المبارك : أنه رأى امرأةً فقيرةً قد أخذت بطةً ميتةً ، فسألها عن ذلك ، فقالت : لنا أيامٌ ما أكلنا فأعطَاها نحواً من ألفِ دينارٍ .

وكان أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ العباسِ العصميُّ نبيلاً من ذوي الأقدارِ العالية، وله أفضالٌ على الصالحينَ والفقهاءِ ، وبلغني أنَّه كانَ يضربُ له دنانير؛ كلُّ دينارٍ منها مثقالٌ ونصفٌ وأكثرُ من ذلك ، فتصدقَ بها ، ويقولُ : إنَّ الفقيرَ إذا ناولته كاغداً ، فتوهمَ أنَّ فيه فضةً ، ثُمَّ يفتحه فيفرحُ إذا رأى صُفرة الدنانيرِ، ويزنه فيفرحُ إذا زاد على المثقال » اهـ

فصل

قال ابنُ الجوزي رحمه الله[٢] :

« متى كانَ الرجلُ يفرضُ للمرأة ما يجبُ عليه لها من النفقةِ لم يجزْ لها أن تأخذَ من مالهِ شيئًا ـ إلا عن أمره ـ ، إلا أن تعلمَ أنَّه إذا اطلعَ على ذلك لم يكرهه .

وكذلكَ إنْ تصدقت بما تعلمُ أنَّه يأذنُ فيه جازَ ، فأمَّا إذا علمت أنَّه يكرهُ ذلك لم يجز لها ، وإنما يجوزُ أنْ تأخذَ مقدارَ نفقتها بالعدلِ إذا كانَ يمنعها ذلك » اهـ

---

(١) السابق (ص/١٤٥) .

(٢) السابق (ص/٢٤٥) .

الطاعةُ وحسنُ العشرةِ

قالَ ابنُ الجوزي رحمه الله :

« وينبغي للمرأةِ أنْ تعرفَ أنَّها كالمملوكِ للزوجِ ، فلا تتصرفُ في نفسِها ولا في مالِه إلا بإذنِه ، وتقدِّم حقَّه على حقِّ نفسِها وحقوقِ أقاربها ، وتكونُ مستعدةً لتمتعه بها بجميعِ أسبابِ النظافةِ ، ولا تفتخرُ عليه بجمالها ، ولا تعيبهُ بقبيحٍ إنْ كان فيه .

قال الأحوصُ : دخلت الباديةَ ، فإذا امرأةٌ حسناءٌ ؛ لها رجلٌ قبيحٌ ، فقلت لها : كيف ترضينَ لنفسكِ أنْ تكوني تحتَ مثله ، فقالت : لعلَّه أحسنَ فيما بينه وبين خالقِه ، فجعلني ثوابَه ، ولعلِّي أسأتُ فجعلَه عقوبتي »[١] .

« وينبغي للمرأةِ العاقلةِ إذا وجدت زوجًا صالحًا يلائمها ؛ أنْ تجتهدَ في مرضاتِه ، وتجتنبَ كلَّ ما يؤذيه ، فإنَّها متى آذته أو تعرضَت لما يكرهُه أوجبَ ذلك ملالَته ، وبقي ذلكَ في نفسِه ، فربما وجدَ فرصةً فتركها ، أو آثرَ غيرَها ، فإنَّه قد يجدُ وقد لا تجدُ هي ، ومعلومٌ أنَّ الملَلَ للمستحسَنِ قد يقعُ ، فكيف للمكروهِ ؟»[٢] .

« وعن عثمانَ بنِ عطاءٍ ، عن أبيهِ ، قالَ : قالتِ ابنةُ سعيدِ بنِ المسيبِ : ما كنا نكلمُ أزواجَنَا إلاّ كما تكلمونَ أمراءَكم .

وعنه أيضًا ، قالَ : قالتِ امرأةُ سعيدِ بنِ المسيبِ : ما كنا نكلمُ أزواجَنا إلاّ كما تكلمونَ أمراءَكم ؛ أصلحكَ اللهُ ، عافاكَ اللهُ »[٣] اهـ

---

(١) السابق (ص/ ٢١٦) .

(٢) السابق (ص٢٢٥) .

(٣) السابق (ص٢١٦) .

« وعن علي بنِ زيدٍ ، عن الحسنِ ، قالَ : أيُّما امرأةٍ قالت لزوجها : ما رأيتُ منكَ خيراً قط فقد حبطَ عملها »[١] .

« وينبغي للمرأةِ أن تصبرَ على أذى الزوجِ كما يصبرُ المملوكُ ، وقد رأينا أنَّ عبد الملك بن مروان وُصِفت له جارية اجتمعت فيها مناقبٌ ، فلما حضرت سألها عن حالها ، فقالت : إنِّي لا أنسي نفسِي أنِّي لك مملوكةٌ ، فقال : هذه المنقبةُ تساوي جميعَ الثمنِ »[٢] اهـ

فصل

قال ابن الجوزي رحمه الله :

« ولا ينبغي لوالدِي المرأةِ ـ ولا لجميعِ ـ أهلِها أنْ يطلُبوا منها الميلَ إلى إيثارِهم أكثرَ من ميلِها إلى زوجِها ، فإنَّها تميلُ إلى زوجِها بالطبعِ ، فلتُعذَر في ذلكَ »[٣] .

« وينبغي لأبوي المرأةِ ـ خصوصًا الأم ـ أنْ تعرفها حقَّ الزوجِ وتبالغَ في وصيتها »[٤] اهـ

فصل

قال ابن الجوزي رحمه الله :

« وعلى ما ذكرنا من وجوبِ طاعةِ الزوجِ ؛ فلا يجوزُ للمرأةِ أنْ تطيعه

---

(١) السابق (ص/ ٢٣٦) .
(٢) السابق (٢١٧) .
(٣) السابق (ص/ ٢٠٥) .
(٤) السابق (ص/ ٢١٧) .

فيما لا يحلُّ ؛ مثل أنْ يطلبَ منها الوطءَ في زمانِ الحيضِ ، أو في المحلِ المكروهِ، أو في نهارِ رمضانَ ، أو غيرِ ذلكَ من المعاصي ؛ فإنَّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الله تعالى »[١] اهـ

خروج المرأة من بيتها

سُئل الإمام أحمد رحمه الله عن النساء يَخْرُجْنَ إلى العيدينِ؟

فقال: «لا يُعْجبني في زماننا هذا؛ لأنَّهُنَّ فتنة»[٢] اهـ

قالَ ابنُ المبارك رحمه الله[٣] :

« ... فإنْ أَبَتِ المرأةُ إلاّ أنْ تخرجَ فليأذنْ لها زوجُها أنْ تخرج في أَطْمَارِها الْخُلْقَانِ[٤] ، ولا تَتَزَيَّنْ ، فإنْ أَبَتْ أنْ تخرجَ كذلك فللزوجِ أن يمنعَها عن الخروج » اهـ .

وقالَ ابنُ الجوزي رحمه الله :

« خروجُ النساءِ مباحٌ ، لكن إذا خيفت الفتنةُ بهن أو منهن فالامتناعُ من الخروجِ أفضلُ ؛ لأنَّ نساءَ الصدرِ الأولِ كنَّ على غير ما نشأ نساءُ هذا الزمانِ عليه ، وكذلك الرجالُ[٥] » اهـ .

قال[٦] : « إذا خرجت المرأة لم تسلِّم على الرجالِ أصلاً.

---

(١) السابق (ص/٢٣٦ - ٢٣٧) .

(٢) «مسائل الإمام أحمد رحمه الله - برواية ابنه عبد الله» (ص/١٣٠ رقم ٤٨٠ - ط: المكتب الإسلامي).

(٣) « سنن الترمذي » (٤/٤٢٠) .

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في « حاشية الترمذي » : «فالأطمار جمع « طِمْر » بكسر الطاء المهملة وسكون الميم ، وهو الثوب البالي . و« الخلقان » جمع « خَلَق » بالخاء المعجمة واللام المفتوحتين ، وهو البالي أيضًا » اهـ

والمراد أن لا تخرج في ثوب يلفت الأنظار إليها ؛ والله أعلم .

(٥) « أحكام النساء » (ص/١٠١) .

(٦) السابق (ص/١٠٢ - ١٠٣) .

قال الزبيدي : أُخذَ على النساءِ ما أُخذ على الحياتِ ، أن يَتَحَجَّرْنَ في بيوتهن .

وقد روينا عن أحمدَ بنِ حنبل ، أنَّه كانَ عنده رجلٌ من العُبَّادِ ، فعطست امرأةُ أحمدَ ، فقالَ لها العابدُ : يرحمكِ اللهُ ، فقالَ أحمدُ : عابدٌ جاهلٌ .

وبلغني عن امرأةٍ من القدماءِ ؛ أنه كانَ إذا طُرِقَ عليها البابُ وليس عندها أحدٌ وضعت يدَها على فمها وتكلَّمت ، ليخرجَ كلاماً منزعجاً لا يفتنُ » اهـ

قال ابن الجوزي رحمه الله [١] : « ينبغي للمرأةِ أنْ تحذرَ مِنَ الخروجِ مهما أمكنَها ، إنْ سَلِمَت في نفسها لم يَسْلَم الناسُ منها .

فإذا اضطرت إلى الخروجِ خرجت بإذنِ زوجِها في هيئةٍ رثةٍ ، وجعلت طريقَها في المواضعِ الخاليةِ دونَ الشوارعِ والأسواقِ ، واحترزت من سماعِ صوتِها ، ومشت في جانبِ الطريقِ لا في وسطِه » اهـ

« وعن علي عليه السلام أنَّه قالَ : ألا تستحونَ أو تَغَارونَ ؟ فإنَّه بلغني أن نساءكم يخرجنَ في الأسواقِ يزاحمنَ العِلُوج »[٢] .

« وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : كانَ النساءُ الأكابرُ وغيرهن يحضرنَ مع رسولِ اللهِ ﷺ وأبي بكر وعمرَ وعثمانَ العيدَ ، فلما كان سعيد ابن العاص سألني عن خروجِ النساءِ ، فرأيت أنْ يمنعَ الشوابَ الخروجَ ، فأمر مناديه لا تخرج يومَ العيدِ شابةٌ فكانَ العجائزُ يخرجنَ »[٣]

«وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب :٣٣] .

---

(١) السابق (ص/١٠٤) .
(٢) السابق (ص/ ١١٠) .
(٣) السابق (ص/ ١١١) .

وقد اختلف المفسرون في ذلك التبرج ، فقال مجاهد : كانت المرأة في الجاهلية الأولى تخرج فتمشى بين الرجال فذلك التبرج .

وقال قتادة : هي مشية فيها تكسر وتغنج .

وقال ابن أبي نجيح : هو التبختر .

وحكى الفراء : أنه لبس الثياب الخفاف التي تصف الجسد .

قلت : نفس خروج المرأة من بيتها ومشيها في الطريق فتنة ، فإذا تصنعت في مشيتها لتُرِي محاسنها زاد في الشرك حبل »اهـ [١]

نظر المرأة للرجال

قال ابن الجوزي رحمه الله :

« ويكره للمرأة أن تطلع من الخوخات ، لأنها ترى الرجال ولا يؤمن أن تتأذى برؤيتهم كما يتأذون برؤيتها .

عن محفوظ بن علقمة ، عن أبيه؛ أن معاذ بن جبل رضي الله عنه دخل بيته فينة[٢] ، فرأى امرأته تنظر من خرق في القبة فضربها ، قال : وكان معاذ يأكل تفاحًا ومعه امرأته ، فمر غلام له فناولته امرأته تفاحة قد عضتها فضربها معاذ .

ومن المنكرات اطلاع النساء على الشباب إذا اجتمعوا في الدعوات؛ لأنه لا تؤمن الفتنة »[٣] .

---

(١) السابق (ص/١٨١) .
(٢) الفَيْنَةُ : الْحِينُ.
(٣) السابق (ص/١١٠) .

« قلت[١] : قد يشكل هذا على من لا يعرفه ، فيقول : إن الرجل إذا رأى المرأة خيف عليه أن يفتتن فما حال المرأة ؟ فالجواب : إن النساء شقائق الرجال فكما أن المرأة تعجب الرجل ، فكذلك الرجل يعجب المرأة ، وتشتهيه ، كما يشتهيها ، ولهذا تنفر من الشيخ ، كما ينفر الرجل من العجوز »[٢]

« أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك بإسناده إلى الأعمش في قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١] .

قال : أن ينظرن إلى غير أزواجهن .

عن محفوظ بن علقمة ، عن أبيه : أن معاذًا رضي الله عنه رأى امرأته تطلع من كوة فأوجعها ضربًا »[٣]

قال ابن الجوزي رحمه الله :

« وينبغي للمرأة أن تغض طرفها عن الرجال كما يؤمر الرجال بالغض عنها ، وقد اختلفت الرواية عن أحمد بن حنبل رحمه الله فيما يجوز للمرأة أن ترى من الرجل الأجنبي ، فروي عنه أنه يجوز لها أن ترى منه ما ليس بعورة ، وروي عنه أنه يحرم عليها أن تنظر منه ما يحرم عليه أن ينظر منها .

واعلم أن أصل العشق إطلاق البصر ، وكما يخاف على الرجل من ذلك يخاف على المرأة ، وقد ذهب دين خلق كثير من المتعبدين بإطلاق البصر وما جلبه ، فليحذر من ذلك »[٤] اهـ

* * *

(١) القائل هو ابن الجوزي رحمه الله .
(٢) السابق (ص/١١٥) .
(٣) السابق (ص/١٦٢) .
(٤) السابق ونفس الموضع .

وَصَايَا لِلنِّسَاءِ

وصية أم زوجة إياس بن الحارث بن عَمْرو الكندي

« عن عبد الملك بن عمير ، قال : لمَّا زوج عوف بن ملحم الشيباني ابنته من إياس بن الحارث بن عمرو الكندي ، فجهزت وحضر أن تحمل إليه ، دخلت عليها أمها أُمامة لتوصيها ، فقالت : يا بنية ، إن الوصية لو تركت لفضل في الأدب أو مكرمة في الحسب لتركت ذلك منك ، ولزويتها عنك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعرفة للعاقل ، أي بنية ، لو استغنت المرأة عن زوجها بغنى أبيها وشدة حاجتها إليه ، لكنت أغنى الناس عنه ، إلا أنهن خلقن للرجال، كما لهن خلق الرجال ، أي بنية ، إنك قد فارقت الحوى الذي منه خرجت ، والعش الذي فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، أصبح بملكه عليك مليكًا ، فكوني له أمة يكن لك عبدًا ، احفظي منه خصالاً عشرًا تكن لك دركًا وذكرًا :

أما الأولى والثانية : فالصحبة له بالقناعة ، والمعاشرة له بحسن السمع والطاعة ، فإن في القناعة راحة القلب ، وفي حسن السمع والطاعة رضى الرب .

وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع أنفه ، والتعاهد لموضع عينه ، فلا تقع عينه منك على شيء قبيح ، ولا تشم أنفه منك إلا أطيب ريح ، وإن الكحل أحسن الموجود ، والماء أطيب الطيب المفقود .

وأما الخامسة والسادسة : فالتعاهد لموضع طعامه ، والتفقد عند حين منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وإن تنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالإرعاء على حشمه وعياله ، والاحتفاظ بماله ، فإن أصل الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على الحشم والعيال حسن

التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تفشي له سرًا ولا تعصي له في حال أمرًا ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره .

ثم اتقي يا بنية الفرح لديه إذا كان ترحًا ، والاكتئاب إذا كان فرحًا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشد ما يكون لك إكرامًا أشد ما تكونين له إعظامًا ؛ وأشد ما تكونين له موافقة وأطول ما تكونين له مرافقة ، واعلمي يا بنية : أنك لن تصلي إلى ما تحبين منه حتى تؤثري رضاه على رضاك ؛ وهواه على هواك ؛ فيما أحببت وكرهت ، والله يخير لك ويحفظك ... فحملت إليه ، فعظم موقعها منه ، فولدت له الملوك الذين ملكوا بعده »[1] اهـ

وصية أمّ لابنتها[2]

أوصت امرأة ابنتها عند زواجها فقالت : أي بنية، لا تغفلي عن نظافة بدنك ، فإن نظافته تضيء وجهك ، وتحبب فيك زوجك وتبعد عنك الأمراض والعلل ، وتقوي جسمك على العمل ، فالمرأة التفلة ـ أي النتنة ـ تمجها الطباع ، وتنبو عنها العيون والأسماع ، وإذا قابلت زوجك ، فقابليه فرحة مستبشرة ، فإن المودة جسمٌ روحه بشاشة الوجه !!» اهـ

---

(١) « أحكام النساء » لابن الجوزي (ص/ ٢١٩ ـ ٢٢١) .

(٢) « التبيان فيما يحتاج إليه الزوجان » لجاسم بن محمد بن مُهَلْهِل الياسين (ص/ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ط : الوفاء بالمنصورة) .

وصية أبي الأسود الدؤلي لابنته

« قال القرشي : وحدثني إبراهيم بن سعيد ، قال : حدثنا موسى بن إسماعيل ، قال : ثنا غسان ، قال : ثنا سعيد بن يزيد : أن أبا الأسود الدؤلي زوّج ابنة له ، فأتته الجارية ، فقالت : يا أبه ، إني لم أكن أحب أن أفارقك ، فأما إذ زوجتني فأوصني ، قال : إنك لن تنالي ما عنده إلا باللطف ، واعلمي أن أطيب الطيب الماء »(١) اهـ

وصية رجل من العرب لبناتٍ له

«عن أبي عبيدة، قال: زوّج رجل من العرب أربع بنات له، فزار أولاهن، فقال: كيف ترين بعلك يا بنية؟، فقالت : السهل بأرض محل، إن سألت أعطى، وإن سكت ابتدأ من غير منٍّ ولا أذى ، فقال: أي بنية رزقتيه بجدك لا بكدك ، ثم زار الثانية ، فقال : أي بعل بعلك ؟ فقالت: جبار عنيد ، من الخيرات بعيد ، لا توقد له نار، ولا يأمن له جار، فقال: أي بنية، صبّت عليك بلية، فليكن الصبر منك سجية، حتى تأتيك المنية، ثم زار الثالثة ، فقال : كيف زوجك؟ فقالت: ذو خلق نزق، وشر غلق، يجود لي في الغنى، ويحرمني إذا افتقر ، فقال : أي بنية ، تذمين وتحمدين ، وكذا الدهر يكون ... حين وحين ، ويحمل الغث والسمين ... ، ثم زار الرابعة ، فقال: أي بعل بعلك ؟ فقالت : ذو خلق جميل ، ورأي أصيل ، مقبل على أهله ، متكرم في رحله ، فقال : أي بنية ، رزقتيه ماجداً سيّداً ، فامنحيه ودك ، وألطفيه جهدك »(٢) اهـ

(١) « أحكام النساء » (ص/ ٢١٨ - ٢١٩) .
(٢) « أحكام النساء » (ص/٢١٩) .

وصية أب لابنته(١)

«بنيتي اعلمي :

١ - إن هناءك مرتبط ارتباطًا متينًا بهناء زوجك ، بحيث لا مهرب لأحدكما من أن يكون سبب سعادة الآخر ، أو علة شقائه ، فاحذري أول نفور يحدث بينك وبين زوجك ، فلربما يتبعه نفور آخر إلى ما لا نهاية له .

٢ - أطيعي زوجك جهد استطاعتك واجتنبي الهزؤ والسخرية والأحاديث المجونية ، وإياك والمغالاة في الغيرة فإنها مفتاح الطلاق ، وإياك وكثرة العتب فإنه يورث البغضاء .

٣ - حافظي على صحتك وتجنبي ما يُشوه الوجه من الأصباغ المغرية .

٤ - احملي بكل بسالة ما يجب عليك حمله ، واعلمي أن الشئون الخارجية هي من خصائص زوجك ، وأما الداخلية فتخصك أنت .

٥ - نظمي شئونك المنزلية ولا تطلعي أحدًا على أسرارك .

٦ - لا تفضي رسائله بدون إذنه ، أو تلحي عليه في معرفة ما لا يريد إخبارك به .

٧ - احفظي لنفسك أسباب اختلافك معه ، ولا تجعلي غيره يطلع عليها.

٨ - اعلمي أن كل رجل لطيف يقدر المرأة التي عندها من الكياسة ، وحسن الذوق والسياسة ما يجعلها تكتم في صدرها معظم شكاويها، ولا تقلقه بأن تكرر على مسمعه في كل حديث المسائل البيتية الصغيرة التي تضايقها .

٩ - إذا زرتك مرات عديدة متوالية ، بدون أن أراك ، فإن ذلك يحزنني ، وإذا وجدتكم وأسعدني الحظ بأن أراك تهتمين بشئونك كما أتمنى ، فإن قلبي يفيض فرحًا وسرورًا .

١٠ - احتفظي بهذه النصائح وطالعيها على الأقل مرة كل شهر واذهبي بسلام وأستودعك الله » اهـ

---

(١) « التبيان » (ص/٢٣ - ٢٤) .

نصيحة زوجة حنكتها التجارب[١]

قالت امرأة تنصح الزوجات :لا يعطف قلب الرجل على المرأة سوى استمالتها إياه إلى ملازمة البيت بما تستطيع أن تستجمعه فيه من الوسائل التي تجذبه إلى ملازمته ، والتي منها :

١ ـ أن تحافظ على مظهرها النسوي وتتجنب التشبه بالرجال لتبقى متصفة بخصائص المرأة أو مميزاتها ولتعلم أن الزوج يحب أن تكون زوجته في داره كالشمس في سمائها لا يحجبها من العبوسة والتجهم سحاب قاتم لاسيما إذا دخل عليها عابس الوجه بباعث لا علاقة لها به ، وأن تكون ملمة بآداب المحادثة ، تسكت حين يجب السكون ولا تقاطعه إذا واصل حديثه ، ولا ترفع صوتها إذا حدثته جاعلة الصدق رائدها في كل حال فإن الصدق منج لها من ورطات الشك في محبتها وإخلاصها .

٢ ـ إذا أنست من نفسها تفوقًا وذكاء وسعة في العلم فلتكتم نصف ذكائها وعلمها مستعيضة عنه بمظاهر الإخلاص والوفاء والعطف لتكسب ميله إليها وعطفه عليها واحترامه إياها .

٣ ـ أن تعلم أن الزوج لا يطيق من زوجته أن تعامله بالفتور والتراخي وقلة الاكتراث فلتحذر هذه العادات ، ولتواسِ زوجها بكلمة سلوان تقع من قلبه موقع المرهم من الجرح .

٤ ـ أن تكون مدبرة مقتصدة فإذا وافاها بشيء من المال للإنفاق منه على شئون البيت ، فمما يسره السرور كله أن يراها تحكم الروية والقصد في إنفاقه بحيث لا ينقص شيء من حاجيات المعيشة ووسائل هنائها ، كما يسره أن يراها من الذكاء والاطلاع بحيث تفهم ما يحدثها به .

إن اتبعت الزوجة هذه النصائح فسوف يقضي الزوج أوقات فراغه في المنزل مع زوجته يحادثها ويؤنسها ويقاطع القهاوي والملاهي التي هي من مزالق الشر ومساقط الفساد .

---

(١) « التبيان » (ص/٢٤ ـ ٢٥) .

فهرس الموضوعات

إهداء ٥
المقدمة..... ٧
الوصية بالأزواج ١١
الفقر ليس عيبًا ٢٥
آداب الفقير ٣٩
الرضى ببلاء الله عز وجل ٤١
أدب الفقير في ظاهره..... ٦١
إظهار التعفُّف..... ٦١
أدب الفقير في أعماله..... ٦١
ترك التواضع للأغنياء لأجل المال..... ٦١
سلامة العبادة مع وجود الفقر..... ٦٢
الحث على مجانبة المسألة وكراهيتها..... ٦٣
لزوم القناعة..... ٦٦
التوكل على من ضمن الأرزاق..... ٦٩
الرضى بالشدائد والصبر عليها..... ٧١
الصبر مفتاح الفرج..... ٧٩
إصلاح المال..... ٩٧
ذم التبذير..... ٩٩
القصد في الإنفاق..... ١٠١
كماليات زائفة ١٠٣
وماذا إذا عجز الزوج عن العمل ١٠٤
عمل يغني عن مسألة ١٠٦
متفرقات من « أحكام النساء » لابن الجوزي..... ١٠٩
وصايا للنساء..... ١٢١
فهرس الموضوعات..... ١٢٨